سلسلة:
إيقاظ أهل الإيمان لمغفرة رمضان (١)

حال المؤمنين في شعبان

لفضيلة الشيخ
د. محمد الدبيسي
حفظه الله وعفا عنه

الطبعة الخامسة

الطبعة الخامسة

شعبان ١٤٣٤هـ - يونيو ٢٠١٣ م

رقم الايداع: ١١٩٣١ / ٢٠١٣
الترقيم الدولي: ٣ - ٠٧٤٠ - ٩٠ - ٩٧٧ - ٩٧٨



مقدمة الطبعة الخامسة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وبعد..

هذه هي الطبعة الخامسة لهذا الكتاب، قمنا فيها بإدخال بعض الزيادات والتنقيح على الطبعة السابقة حتى يزداد نفع إخواننا بهذا الكتاب المبارك.

وأغلب هذه الزيادات توجد في الجزء المتعلق بالقرآن الكريم، وبعض الحواشي المتعلقة بتوضيح بعض المعاني في الأحاديث النبوية الشريفة، وقد بلغت هذه الزيادات أكثر من عشرين صفحة، نسأل الله تعالى أن ينفع بها. ومما ينبغي الإشارة إليه أنه بالرغم من كون هذه الرسالة تركز على حال المؤمنين في شهر شعبان للتأسي بهم إلَّا أنَّ كثيرًا من موضوعاتها – كالإخلاص وتعمير أوقات الغفلة بالطاعات وقيام الليل وأحوال المؤمنين مع القرآن ..الخ– هي لكل الأزمنة. والله العظيمَ نسأل أن ينفع به مؤلفه والناظر فيه وكلَّ مَنْ شارك في نشره ابتغاء وجه الله تعالى.

مسجد الهدي المحمدي

شعبان ١٤٣٤ هـ - يونيو ٢٠١٣م

مقدمة الطبعة الأولى:

إنَّ الحمدَ لله نحمدُه ونستعينه ونستغفره. ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. مَنْ يَهْدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له ومَنْ يُضْلِل فلا هاديَ له. وأشهدُ أنْ لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له وأشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسوله..

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ..

فإِنَّ أَصْدَقَ الحديثِ كتابُ الله تَعَالى، وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ صَلَّى الله عليه وعلى آله وسَلَّم، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدَثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النار.

اللهم صلِّ على محمدٍ النبيِّ وأزواجِه أمهاتِ المؤمنين وذُرِّيَّتِه وآلِ بيته كما صليتَ على آل إبراهيم إنكَ حميدٌ مجيدٌ.

فهذه بعض خطب اخترناها من مجموعة خطب "إيقاظ أهل الإيمان لمغفرة رمضان" في أهمية الاستعداد لموسم المغفرة في رمضان لفضيلة الشيخ/ محمد الدبيسي حفظه الله تعالى وعفا عنه ، وهي تُبَيِّن "حال المؤمنين في شعبان" حتى يكونوا أهلا لمغفرة الله تعالى ورحمته، وحتى تكون هذه الأحوال سببا بعد فضل الله في عتقهم من النار في رمضان .

وقد آثرنا هذه المجموعة لكونها مختصرة تلائم همم الناس وعزائمهم اليوم، وإلا فهناك مجموعة من الخطب توسعت في عرض تلك المواضيع، وزادت عليها، نأمل أن نستفيد منها في تنقيح هذه الخطب وزيادتها والبسط لتك الموضوعات المهمة، لتكون زاداً للمؤمنين المتقين لتحصيل أسباب نجاتهم ، والمسارعة والمنافسة في تحقيق رضوان الله وفضله .

ومن الأهمية بمكان أن نُذَكِّر بمسئولية المؤمنين الجسيمة في رفع البلاء النازل على أقطار الإسلام المختلفة ، وإن مما يخفف ذلك ويرفعه أن يستغل المؤمنون هذه الأوقات الشريفة في العودة إلى الله والمجاهدة على أعمال الطاعة ، وإصلاح ذات البين ، مع الأشواق العالية لمحبة ربهم ولقائه حتى يكونوا أهلا لرحمة الله ونصره.

وإن التسويفَ والتأخيرَ وطولَ الأمل للتوبةِ والأعمال الصالحة التي تُرْفَع إلى الله ويُضاعفُ أجرُها في هذه الأيام الكريمة ، لمما يزيد الجفوةَ بين المؤمنين وبين ربهم ، ويزيد من غفلتهم، ويزيد مِنْ تسلُّط أعدائهم عليهم، وإذا بهم يخرجون من رمضان كما دخلوا فيه، وقد خاب وخسر من أتى عَليه رمضان فلم يغفر له.

وكعادتنا في استعجال تفريغ وطبع تلك الرسائل تلاحقنا أخطاء كثيرة نرجو من الله العون على تلافيها ، والعذر من القارئ لها مع النصح والدعاء بظهر الغيب ، فما كان فيه من خطأ فمنا ومن الشيطان والله ورسوله منه بريئان ، وما كان من صواب فمن الله وحده فله الحمد والثناء الحسن ، نسأل الله أن ينفع به قائله وكاتبه وناشره والناظر فيه .

مسجد الهدي المحمدي

ميدان طور سيناء- الظاهر

القاهرة

شعبان ١٤٢٧ ، أغسطس ٢٠٠٦

الفصل الأول:



أسباب الاهتمام بشهر شعبان:

- لأنه مقدمة لموسم المغفرة.
- لأن تعمير أوقات غفلة الناس بالطاعة والعمل الصالح يرفع الله تعالى به البلاء عن بقية المؤمنين.
- الوفاء بعهد المؤمنين مع الله تعالى استعدادا لرمضان.

إِنَّ مِنْ رحمة الله بعباده أن يَسَّر لهم مواسم الخيرات والطاعات، وجعل لهم في أيامه نفحات ليتعرض لها العباد[1]، ويرجع العاصون المذنبون لحظيرة الطاعة، ويتوبوا إلى الله ﷻ، فتشملهم رحمته، ومغفرتُه.

فها هي قد أَظَلَّتنا مواسم المغفرة، ومواسم الطاعات، وها هي الشهور المباركة تُهِلُّ علينا، وكأنها تَصِيح بنا: أَنْ تجَهَّزوا فَقَد قَرُبَ مجيء الحبيب !!

ها هي الأيام تُطوى، وها هو الزمان قد استدار، وها هو الغائب المنتظَر قد قَرُب مجيئُه؛ إنه شهر الله رمضان، شهر الخير، شهر الصيام، شهر القرآن، شهر القيام، شهر الصدقة... إنه شهر الرحمات.

(١) عنْ أَنَسِ بن مَالِكٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «افْعَلُوا الْخَيْرَ دَهْرَكُمْ، وَتَعَرَّضُوا لِنَفَحَاتِ رَحْمَةِ الله، فَإِنَّ لله نَفَحَاتٍ مِنْ رَحْمَتِهِ يُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَسَلُوا الله أَنْ يَسْتُرَ عَوْرَاتِكُمْ، وَأَنْ يُؤَمِّنَ رَوْعَاتِكُمْ». أخرجه الطبراني في الكبير (ح: ٧٢٠) ط. مكتبة العلوم والحكم – الموصل.وحسّنه الشيخ ناصر في الصحيحة (١٨٩٠). قوله: «افْعَلُوا الْخَيْرَ»الخير هنا جميع أنواع البر (**دهركم**) أي مدة حياتكم جميعها؛ لأن الإنسان لا يعلم نجاته في أي محل ولا في أي وقت تحصل، (**وتعرّضوا**) أي اقصدوا، أو من التعرض؛ وهو الميل إلى الشيء من أحد جوانبه (**لنفحات رحمة الله**) أي اسلكوا طرقها حتى تصير عادةً وطبيعة وسجيةً، وتعاطوا أسبابها وهو فعل الأوامر، وتجنب المناهي، وعدم الانهاك في اللذات والاسترسال في الشهوات، رجاءَ أن يهب من رياح رحمته نفحة تُسعدكم، أو المعنى: اطلبوا الخير متعرضين لنفحات رحمة ربكم بطلبكم منه ..... وفي «الصحاح» للجوهري: «**نفح**» الطيبُ، أي فاح ونفحت الريحُ هبت ، ونفحةٌ من عذاب قطعة. وفي «المصباح»: نفحَهُ بالمال: أعطاه، والنفحة العطية. (**فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده**) المؤمنين فداوموا على الطلب فعسى أن تصادفوا نفحة من تلك النفحات فتكونوا من أهل السعادات.» انتهى بتصرف كثير واختصار من الفيض للمناوي رحمه الله تعالى.

فمِن هنا كان ينبغي أَنْ نُخَصِّصَ حديثًا نُذَكِّر فيه بما ينبغي أَنْ يكون عليه المرءُ هذه الأيام من الاستعداد لتلك المواسم، وتلك الرحمات؛ حتى يَمُنَّ الله علينا بأن نكون من أهل الرحمة الذين تشملهم رحمةُ الله.

فقد أَزِفَ شهر شعبان، وهو شهر له خصوصيته عند النبي ﷺ، وله تعظيمه الذي ينبغي على المؤمنين أن يُعَظِّموه مثلما عَظَّمه النبي ﷺ حيث أنه كان «**يَصُومُ شَعْبَانَ كُلَّهُ**»[1]، وفي رواية: «**إِلَّا قَلِيلًا**»[2]، وقال لما سُئِلَ ﷺ عن صيامه لشهر "شعبان": «**ذَلِكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاس عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ، وَهُوَ شَهْرٌ تُرْفَعُ فِيهِ الْأَعْمَالُ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ**»[3]، وذلك التعظيم من النبي ﷺ كان له أسباب منها:

الأول: أن رمضان موسم المغفرة، وينبغي على كل أحد -يريد الله تعالى والدار الآخرة- أن يهتم لهذه المغفرة، وأن يبذل لها وسعه، وذلك لما هيَّأ الله تعالى فيه من أسباب الرحمة والمغفرة والرضوان والعتق من النار.

(١) البخاري (١٩٧٠)، ومسلم (١١٥٦) من حديث عائشة ﵂. وعن عَائِشَةَ ﵂ أيضا تَقُولُ: «كَانَ أَحَبَّ الشُّهُورِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ أَنْ يَصُومَهُ شَعْبَانُ» أخرجه النسائي (٢٣٥٠) وأبو داود (٢٤٣١) وسكت عنه، وصحّحه الشيخ ناصر الألباني في صحيح النسائيّ (٢٣٤٩). وعنها أيضًا في صحيح البخاري (١٩٦٩)، وبنحوه في صحيح مسلم (١١٥٦): «وَمَا رَأَيْتُهُ أَكْثَرَ صِيَاماً مِنْهُ فِي شَعْبَانَ»

(٢) مسلم (١١٥٦) من حديث عائشة ﵂.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥ / ٢٠١) مرفوعا إلى النبي ﷺ من حديث أسامة بن زيد ﵁، قال الشيخ شعيب في التحقيق: إسناده حسن.

فقد قال النبي ﷺ :« مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ »(١)،

وقال : «مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»(٢).

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: دَخَلَ رَمَضَانُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « إِنَّ هَذَا الشَّهْرَ قَدْ حَضَرَكُمْ، وَفِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، مَنْ حُرِمَهَا فَقَدْ حُرِمَ الخَيْرَ كُلَّهُ، وَلاَ يُحْرَمُ خَيْرَهَا إِلاَّ مَحْرُومٌ »(٣).

---

(١) متفقٌ عَلَيْهِ: البخاري (٣٨)، مسلم (٧٦٠) من حديث أبي هريرة ﷺ ، « قوله «إيمانا» أي تصديقًا بأنه – أي صومَ رمضان– حقٌ وطاعةٌ، قوله «واحتسابًا» أي إرادةَ وجه الله تعالى، لا لرياء ونحوِه، فقد يفعل الإنسان الشيء الذي يعتقد أنه صادق، لكنْ لا يفعلُه مخلِصًا، بل لرياء أو خوفٍ أو نحوِ ذلك، يُقال «احتسابًا» أي حسبةً لله تعالى، يقال احتسبتُ بكذا أجرًا عند الله تعالى، والاسم الحسبة وهي الأجر، ... واحتسبتُ بكذا أجرًا عند الله، أي اعتددتُه أنوِيْ به وجهَ الله تعالى، ومنه قوله عليه السلام من صام رمضان إيمانا واحتسابا ». انتهى بتصرف من عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني. وقال الحافظ في الفتح: " قَالَ الْخَطَّابِيّ : اِحْتِسَابًا أَيْ عَزِيمَة ، وَهُوَ أَنْ يَصُومَهُ عَلَى مَعْنَى الرَّغْبَة فِي ثَوَابه، طَيِّبَةً نَفْسُهُ بِذَلِكَ، غَيْرَ مُسْتَثْقِل لِصِيَامِهِ، وَلَا مُسْتَطِيل لِأَيَّامِهِ.". اهـ. وللمؤلف خطبةٌ صوتية مهمة بعنوان « الاحتسابُ و أثره في تحقيق المغفرة » من سلسلة خطب رمضانَ ١٤٢٨ هـ التي بعنوان «رمضان وتحقيق المغفرة »، فارجع إليها للمزيد من الإفادة. والسلسلة متوفرة على الشبكة العنكبوتية للمعلومات الإنترنت).

(٢) متفقٌ عَلَيْهِ: البخاري (٢٠٠٩)، مسلم (٧٥٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) رواه ابن ماجه (١٦٤٤) ، قال المنذري : (إسناده حسن إن شاء الله تعالى) اهـ الترغيب (١٤٩١) ط. العلمية. قوله ﷺ «**إنّ هذا الشهر**» اسم الإشارة للتعظيم... «**قد حضركم**» أيْ فاغتنموا حضورَه بالصيامِ في نهاره، والقيامِ في ليله، «**وفيه ليلةٌ**» أي ليلةٌ واحدةٌ مبهمةٌ من لياليه، «**خير من ألف شهر**» أيْ فالْتَمِسوها في كل ليلة رجاءَ أنْ تدركوها، «مَنْ حُرمها» أيْ حُرِم خيرَها وتوفيقَ العبادة فيها، ومُنع عن القيام ببعضها، «فقد حُرم الخير كله، ولا يُحرم خيرها» أيْ حتى يتخلّفَ عنها «إلا محروم» . انظر – =

بتصرفٍ كثير: مرقاة المفاتيح. وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ۝٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ۝٥ ﴾ [القدر:١-٥] . يُخبر اللهُ تعالى أنه أنزل القرآن ليلةَ القدر، وهي الليلة المباركة التي قال الله، عز وجل: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ [الدخان: ٣] وهي ليلة القدر، وهي من شهر رمضان، كما قال تعالى: ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ ﴾ [البقرة: ١٨٥] .قال ابن عباس وغيره: أنزل اللهُ القرآنَ جملةً واحدةً من اللوح المحفوظ إلى بيت العِزّة من السماء الدنيا، ثم نزل مُفصّلا بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ.ثم قال تعالى مُعَظِّمًا لشأن ليلة القدر، التي اختصها بإنزال القرآن العظيم فيها، فقال: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣ ﴾عن مجاهدً قال: كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح، ثم يجاهد العدو بالنهار حتى يمسي، ففعل ذلك ألفَ شهر، فأنزل الله سبحانه هذه الآية: ﴿ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ﴾ ؛ قيامُ تلك الليلةِ خيرٌ من عملِ ذلك الرجل. وعن مجاهدٍ أيضًا: ليلةُ القدر خير من ألف شهر. قال: عَمَلُها؛ صيامُها وقيامُها خيرٌ من ألف شهر. وقوله: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ﴾ أي: يكثر تَنزلُ الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن ويُحيطون بحِلَق الذِّكر، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيما له.وأما الرُّوح فقيل: المراد به هاهنا جبريل، عليه السلام، فيكون من باب عطف الخاص على العام. وقيل: هم ضرب من الملائكة. كما تقدم في سورة "النبأ". والله أعلم.وقوله: ﴿ مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ﴾ قال مجاهد: سلام هي من كل أمر. وعن مجاهد أيضًا في قوله: ﴿ سَلَٰمٌ هِيَ ﴾ قال: هي سالمة، لا يستطيع الشيطانُ أن يعملَ فيها سوءًا، أو يعمل فيها أذًى.وقال قتادة وغيره: تُقضَى فيها الأمور، وتُقدَّر الآجال والأرزاق، كما قال تعالى: ﴿ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴾. وعن الشَّعْبي في قوله تعالى: ﴿ مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ۝٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ۝٥ ﴾ قال: تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد، حتى يطلع الفجر. انتهى بتصرفٍ كثيرٍ واختصارٍ من تفسير ابن كثير رحمه الله تعالى؛ تفسير سورة القدر.

وزاد: « مَنْ قَامَ لَيْلَةَ القَدْرِ إيمَاناً واحْتِسَاباً غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ »[1].

وله في كل ليلة عتقاء حتى إذا كان في آخر الشهر أعتق بعدد ما أعتق في الشهر كله، وأن الصائم دعوته لا ترد كما قال ﷺ :

«ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ لاَ تُرَدُّ: دَعْوَةُ الْوَالِدِ ، وَدَعْوَةُ الصَّائِمِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ»[2].

وقد أعان المؤمنين على تحقيق ذلك بقوله: «إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ صُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ وَمَرَدَةُ الْجِنِّ ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ، وَفُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ، وَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ . وللهِ عُتَقَاءُ مِنَ النَّارِ وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ»[3].

---

(١) متفقٌ عَلَيْهِ: البخاري (٢٠١٤)، مسلم (٧٦٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) رواه البيهقي في الكبرى عن أنسٍ بن مالكٍ ﷺ مرفوعا (ح: ٦٦٢٠) - مجلس دائرة المعارف النظامية - حيدر آباد- ط ١، قال النووي في خلاصة الأحكام: إسناده صحيح على شرطهما. اهـ (ح: ٣٠٨٠) مؤسسة الرسالة – بيروت، ط١ ،سنة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

(٣) رواه الترمذي واللفظ له (٦٨٢) وقال:غريب، وابن خزيمة في صحيحه بنحوه (١٨٨٣)، وابن حبان (٨/ ٢٢١) وقال الشيخ شعيب في التحقيق (إسناده قوي) ، والحاكم في المستدرك (١٥٣٢) وقال: (حديث صحيح على شرط الشيخين. قال الحافظ رحمه الله تعالى : «وَقَوْلُهُ " صُفِّدَتْ " ... أَيْ شُدَّتْ بِالْأَصْفَادِ ؛ وَهِيَ الْأَغْلَالُ، وَهُوَ بِمَعْنَى سُلْسِلَتْ.. وفِي تَصْفِيد الشَّيَاطِين فِي رَمَضَان إِشَارَة إِلَى رَفْع عُذْر الْمُكَلَّف، كَأَنَّهُ يُقَالُ لَهُ: قَدْ كُفَّتْ الشَّيَاطِينُ عَنْك فَلا تَعْتَلَّ بِهِمْ فِي تَرْكِ الطَّاعَةِ وَلَا فِعْلِ الْمَعْصِيَةِ.» اهـ من فتح الباري. «صُفِّدَتْ الشياطينُ وَمَرَدَةُ الْجِنِّ » المردة جَمْعُ مَارِدٍ كَطَلَبَةٍ وَجَهَلَةٍ ، وَهُوَ- أي المارد- الْمُتَجَرِّدُ لِلشَّرِّ ، وَمِنْهُ الْأَمْرَدُ لِتَجَرُّدِهِ مِنْ الشَّعْرِ ، وَهُوَ- أي العطفُ- تَخْصِيصٌ بَعْد تَعْمِيمٍ، أَوْ عَطْفُ تَفْسِيرٍ وَبَيَانٍ كَالتَّتْمِيم . وَقِيلَ الْحِكْمَةُ فِي تَقْيِيدِ الشَّيَاطِينِ وَتَصْفِيدِهِمْ كَيْ لَا يُوَسْوِسُوا فِي الصَّائِمِينَ . وَأَمَارَةُ ذَلِكَ تَنَزُّهُ أَكْثَرِ الْمُنْهَمِكِينَ فِي الطُّغْيَانِ عَنْ الْمَعَاصِي وَرُجُوعِهِمْ بِالتَّوْبَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.» اهـ من تحفة الأحوذيّ بتصرف كثير. « «وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ =

ومن ثَمَّ لم يكن عذرٌ حينئذ لأحد فقال ﷺ حاكيًا عن جبريل عليه السلام: «مَنْ أَتَى عَلَيْهِ رَمَضَانُ فَلَمْ يُغْفَرْ لَه أَبْعَدَه اللهُ، أَدْخَلَه النَّارَ . قُلْ آمِين . فَقُلْتُ: آمين»[1] .

والسبب الثاني : تعمير أوقات غفلة الناس بالطاعة والعمل الصالح الذي يرفع الله تعالى به البلاء عن بقية المؤمنين.

وهو الأمر التالي الذي ينبغي على أهل الإيمان أن يهتموا به؛ أنَّ "شعبان" فُتِحَ ليتحمل المؤمنون مسئوليتهم فيه من العمل الصالح الذي يرفع الله تعالى به البلاء عن بقية المؤمنين، فمسئولية المؤمنين أمام الله تعالى، ومسئوليتهم تجاه أمتهم، وحفظِ دينهم مسئوليةٌ عظيمةٌ، وهي في محل الخطر؛ لأن ما نزل بغيرهم من المؤمنين المقصرين في أقطار الإسلام الأخرى من هلاك أو استضعاف أو بلاءٍ أو شدة يوشِك

النَّارِ فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ، وَفُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ » ...فيه إشارة إلى أن الأزمنة الشريفة والأمكنة اللطيفة لها تأثيرٌ في كثرة الطاعة وقلة المعصية، ويشهد به الحس والمشاهدة، لتغتنم الفرصة، ويشير إلى هذا المعنى قولُه: « وينادي مناد» أي ... ببيان المقال من عند الملك المتعال «يا باغي الخير» أي يا طالب العمل والثواب «أقبل» أي إلى الله وطاعتِه بزيادة الاجتهاد في عبادته وهو أمرٌ من الإقبال، أي تعال فإن هذا أوانُك؛ فإنك تُعطَى الثوابُ الجزيل بالعمل القليل، أو معناه: يا طالب الخير المُعرِض عنا وعن طاعتنا أقبل إلينا وعلى عبادتنا، فإن الخير كله تحت قُدرتنا وإرادتنا، «ويا باغي الشر» أي يا مُريد المعصية ... أي أمسكْ عن المعاصي، وارجع إلى الله تعالى؛ فهذا أوان قبول التوبة وزمان الاستعداد للمغفرة. ولعلَّ طاعةَ المطيعين وتوبة المذنبين ورجوعَ المقصرين في رمضان من أثرِ النداءين ، ونتيجةِ إقبال الله تعالى على الطالبين... «ولله عتقاء» أي كثيرون من النار، فلعلك تكون منهم «وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ»» اهـ بتصرفٍ يسير من مرقاة المفاتيح للملا على القاري رحمه الله تعالى.

(١) من حديث أبي هريرة، رواه ابن حبان (٣/ ١٨٨) في صحيحه، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط : إسناده حسن.

أن ينزل بهم؛ لأن ما نزل بغيرهم إنما نزل لنفس الأسباب التي يقعون هم فيها في هذه الأيام، فيوشك أن يكون شأنهم نفس الشأن، ويوشك أن يكون مصيرهم نفس المصير، ولا حول ولا قوة إلا بالله، عياذًا بالله من ذلك.

وإذا كان المؤمنون ينبغي أن يكونوا مُستعدين على كل حال فإنهم في تلك الأيام من أيام المغفرة ينبغي **أن يَسْتَعِدُوا من أول يوم في شعبان** ، لأن أيام المغفرة تأتي ليَزْدادُوا فيها استعدادًا، وَلِيَزْدادوا فيها عملًا، وليزدادوا بها قُرْبًا من الله ، وليزدادوا فيها اجتهادًا، فمن كان مقصِّرًا أقلع، ومن كان مستقيمًا ازداد، ومن كان مُتَهَيِّئًا للرحمة إذا به يزداد من تلك الرحمة، ومن هذا التقرب إلى الله تعالى.

فإذا لم يحاول المؤمنون المهتمون اليوم أن يقوموا بتلك المسئولية الضخمة وبهذه الأعباء فَمَنْ يقوم بها؟!

وإذا لم يبلوا البلاء الحسن ، وإذا لم يدفعوا هُم فمن يَدْفَعُ ومن يبلي؟!

وإذا لم يجتهدوا في القيام بتلك الأوامر النبوية من التحقق بأسباب المغفرة فمن يجتهد؟!

وإذا ظلَّ الاجتهادُ هو مشكلةَ المؤمنين وعُقدتهم... وظلت نواياهم غيرَ معقودة عليه، ولا مُهْتَمَّةٍ به حتى في تلك المواسم من مواسم المغفرة، **فمتى تنعقد تلك النوايا على الاجتهاد؟**

جاء "شعبان" إذن ليتعلم فيه المرء هذا الاجتهاد وليكون هو المُقَدِّمَةَ لتلك المغفرة التي ينبغي أن يستعد المؤمنون لها الاستعداد الجيدَ -الذي طالما قصَّر فيه

المؤمنون- وقالوا قولهم المعتاد الذي نسمعه كل عام بعدما خرجوا من رمضان كما دخلوا فيه: «إن شاء الله من العام المُقْبِل سوف نحاول، وسوف نبدأ، وسوف نُعِدُّ أنفسنا من أول يوم، وسوف لا يضيع علينا "رمضان" كما ضاع من قبل!» وكذا، وكذا مما نسمع من هذه الأماني، وتلك العهود التي يُعَاهِدُ المؤمنون ربهم وأنفسهم أن يتحققوا بها، وأن يلتزموا بمقتضاها، وأن يُوَفُّوا بها لله تعالى.. ثم يعودوا سيرتهم الأولى السيئة المعلومة ! فكم من قائل إنه سيبدأ وسيحاول ، ثم تغلبه نفسه أو يغلبه شيطانه ، وينقض عهده مع الله !

وقد أضافت هذه العهود السابقة سببا ثالثا للاهتمام بشهر شعبان.

السبب الثالث: الوفاء بعهد المؤمنين مع الله من الاستعداد لرمضان

فقد كان المؤمنون عندما انقضى- "رمضان" الماضي، والذي قبله، والذي قبله، يقولون: من الذي حصَّل المغفرة؟ من الذي حصَّل العِتق من النَّار؟

يَا لَيْتَ شِعْرِي مَنْ المقْبُولُ فَنُهَنِّيَهُ ومَنْ المرْدُودُ فَنُعَزِّيَهُ

ثم خرج المؤمن من رمضان وعاد فجأة إلى دنياه، وإلى كَسَلِهِ، وإلى غَفْلَتِهِ، وإلى بُعْدِهِ، ولم تَعُدْ حاله كما كانت على هذه الأحوال الحسنة في "رمضان" فإذا به يَتَحَسَّر على ذلك، ويَحْزُن لما صار إليه فجأة بعد أن كان في حالة عالية، وأحوال سَنِيَّة، وأعمال رَضِيَّة، إذا به ينتقل إلى العكس، وكأنه لم يكن في "رمضان"! فلا قيام، ولا صيام، ولا ذِكْر، ولا قرآن، ولا شيء. وإن كان ثَمَّ شيء من ذلك فهو قليل متقطع شملته الغفلة. ثم يُعاهد ربَّه أن يعوض ذلك في شعبان القادم، وأنه سيبدأ فيه من أول يوم.

فهؤلاء قد أتاهم "**شعبان**" ليكون الموسم الذي فتحه الله جل وعلا لهم ليدركوا هذه العهود، وليكون تقدمة "**لرمضان**" لِيُنَفِّذوا عهودهم، لِيُوَفُّوا بما عاهدوا الله تعالى عليه؛ ليُثْبتوا أنهم مُتحمِّلون لتلك المسئوليات، وأنهم لن يقصِّروا فيما قصروا فيه من قبل، وإنما قد جاءتهم الفرصة ليُرُوا ربهم سبحانه وتعالى، أنهم حقًّا يريدون مغفرته، وأنهم حقًّا يريدون أن يعتقهم من النار، وأن يخرجهم من الحالة الراكدة التي هم فيها ، ليخرجهم من ذلك كله ﷻ؛ بعفوه، وفضله وَمَنِّهِ إلى حال أحسن، وإلى موسم أعظم، وإلى تلك المقامات السامية مع الله تعالى التي يرضى عن عباده فيها.

جاء هذا الموسم ليحقق لهم ما فات عليهم في المواسم السابقة، ها قد فتح الله تعالى في أعمارهم؛ كانوا يتمنون بعد "رمضان" ماضٍ، لو يأتي عليهم "رمضان" آخر، فإنَّ النَّبي ﷺ قال: «**وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانُ ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ**»[1]، ها قد جاء وقتهم ليوفُّوا بعهودهم.. **تُراهم يوفُّون ؟!**

هُمْ بين أمرين: إمَّا أن يكونوا كسابق عهدهم، وإمَّا أن يُوَفُّوا مع الله تعالى لِعِلْمِهم أنَّه يمكن أن لا يعود عليهم رمضان مرة أخرى.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٥) وقال: "حديث حسن غريب"، وابن حبان في صحيحه (٣/ ١٨٩) قال الشيخ شعيب في التحقيق: (إسناده صحيح على شرط مسلم) اهـ، كلاهما يرويه من حديث أبي هريرة ﷺ. قال المنذري: (رَغِمَ - بكسر الغين المعجمة - أي لصق بالرغام وهو التراب ذلًا وهوانًا، وقال ابن الأعرابي: هو بفتح الغين ومعناه: ذل) اهـ من الترغيب (ح:٢٥٩٦) .

مَنْ الذي يضمن أن يعود عليه "رمضان" مرةً أخرى؟ ولو عاد إليه مَن الذي يضمن أن يُفتحَ له باب القبول خاصة وأنه لم يُوَفِّ من قبل، وقد خدعه الشَّيطان ومنَّاه أنَّه سيكون في رمضان أحسن مما كان في ذي قبل، ولم يحدث ذلك ؟!

مَنْ الذي ضَمِنَ قلبَه ؟ ومَنْ الذي ضمن أن يفتح الله تعالى له بابه؟! وقد رآه متكاسلًا؛ رآه يَدْفَع نعمة الله تبارك وتعالى، ويُعْرِضُ عنها، ولا يأخذها بقوة. هو قد أعْرَضَ عن هذه الرحمة، وعن تلك المغفرة ولم يبالِ بها، وأخذها بهذا التكاسل، وهذا التواني، وهذا الضعف..تُراه بعد ذلك يفتح الله تعالى له؟!

لذلك كان أول ما ينتظره المؤمنون من هذا الشهر هو **الاستعداد لرمضان كموسم من مواسم المغفرة**، فإنهم يعلمون إنهم إن لم يستعدوا لهذا الشهر كما كان حال النبي ﷺ وأصحابه، فإنَّ رمضان سينقضي عليهم كما انقضى غيره من قبل ، ويخرجون منه بالحسرة، ويخرجون منه بالحزن والألم، ويخرجون منه على الحال التي لا يمكن أن تتحقق بها المغفرة كما قال ﷺ فيها: **«مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»**(1) .

فَمَنْ الذي أحسَّ بهذه المغفرة بعد رمضان في الأعوام الماضية؟

ومن الذي أحسَّ بهذا العتق من النار بعد رمضان ؟

ومَن الذي أحسَّ برحمة الله تعالى تنزل عليه فينتقل مما هو فيه إلى الحال الحسن، وإلى استقامة أشد على طريق الله تعالى ؟

مَنْ الذي أحسَّ بذلك كله ؟!

---

(1) أخرجه البخاري (٣٨)، ومسلم (٧٦٠) من حديث أبي هريرة ﷺ .

الفصل الثاني:



وظائف المؤمنين في شعبان

١- صيام شهر شعبان .

٢- تعمير أوقات الغفلة بالطاعات، والقرب إلى الله تعالى.

٣- مجاهدة النفس على الطاعات.

٤- تجهيز أحسن الأعمال لرفعها إلى رب العالمين.

٥- تحصيل مغفرة الرّب في ليلة النصف من شعبان.

٦- الانكباب على كلام الله تعالى وإدمان تلاوته.

٧- التهجد وطول القيام.

وأحاديث النبيِّ ﷺ التي ذكرنا هي مدخلنا إلى الكلام عن هذه الوظائف ليفهم منها المؤمنون حل مشكلتهم وعقدتهم في الاجتهاد وليتعلموا مواضع الاستعداد لـ"رمضان" ومواسم المغفرة، وأهمية الدفع عن المؤمنين وتحمل المسئولية التي أنيطت بهم، وخطر تعويض واستدراك ما فات مما كانوا يُمَنُّونَ أنفسهم به والوفاء بعهدهم مع الله.

قال ﷺ: «**ذَلِكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاس عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ وَهُوَ شَهْرٌ تُرْفَعُ فِيهِ الْأَعْمَالُ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ**»[1].

وكأنَّ "رَجب" و"رمضان" مِن الشُّهور التي يُعظِّمها المؤمنون، ثم يَغْفُلون عن "شعبان"، وهذه هي الحال التي نحن فيها، فما أن يأتي "شعبان" حتى يترك الناس الاجتهاد والطاعات ويقصرون فيها -وهم مقصرون أصلا- يقول القائل لنفسه: «ها قد أوشك "رمضان" ، وإن شاء الله في "رمضان" تُعَوِّض ذلك كله، وإنْ شاء الله في "رمضان" يكون اجتهادك زائدًا ... » ، ويظل يفتح له الشيطان باب التمني والأمل حتى يقعد عن العمل في "شعبان"، وحتى يتكاسل عنه !

وذلك ما تميل إليه النفس؛ لأنه كلما اقتربت تلك المواسم ضَعُفَت النَّفس عن العمل ؛ لأنها بتسويفها تظنّ أنها سَتُعَوِّض ذلك في "رمضان"، فإذا جاء "رمضان" على هذه النفوس الضعيفة، وعلى هذا الإقبال الضعيف على الله تعالى لن يجدي "رمضان" شيئًا؛ أتاهم وهم خائبون، فانصرف عنهم وهم كذلك، فعادوا إلى الخيبة والخسارة التي نراها كل عام، إلا من رحم الله تعالى.

---

(١) سبق تخريجه في الحاشية . انظر ص ١٠.

فَلْيشُدّ أهل الإيمان إذًا على عزمهم، ولْيُوَثِّقُوا عهودهم، وليأخذوا حِذْرَهم، وليتيقظوا لفوات عُمُرهم، فالعمر يمر بأسرع مما نتخيل: فقد كنا نتكلم عن قرب مجئ رمضان السنة الماضية وجاء ورحل، كأنه بالأمس القريب، وإذا "برمضان" التالي يوشك أن يعود؛ عام كامل قد مرَّ، تُراك حاسبت فيه نفسك أيها المؤمن؟

إذن لقد علمتَ كم كانت خسارتك فيه، وكم ضَيَّعتَ فيه من أنفاس وأيام وشهور، وكم ضيعت ذلك كله في عدم تحصيل شيء في معادك، وتحقيق أسباب نجاتك، وقد علمت أنَّك موقوف، ومسئول، فقد قال النبي ﷺ: « **لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ: فِيمَا أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ: فِيمَا فَعَلَ؟ وَعَنْ مَالِهِ: مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ: فِيمَا أَبْلاَهُ؟** »[1] . فلن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن شبابه وعن عمره وعن ماله أين ضيَّع ذلك كله ؟ وكأنَّ عمرك لا يُساوي شيئًا، وكأنَّك لن تُسأل عنه، وكأنه شيء لم يفتحه الله تعالى لك لتزيد به من حسناتك، ولتأخذ به في تثقيل موازينك، ولتُقْبِلَ به على ربك؛ خشية أن يأتيك الموت، وأنت على هذا الحال!

وكأنَّك من كَثْرَةِ مَا أَمدَّ لك الشيطان في الأمل، وأنساك بغتة الأجل، وأنساك قُرْبَ الموت والرحيل، كأنك بِمَأْمَن أن تنتقل إلى الرب الجليل وأن ترحل إليه، وأن تُحاسب بين يديه سبحانه وتعالى؟

---

(١) رواه الترمذي من حديث أبي برزة الأسلمي ﷺ مرفوعا ، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح (٢٤١٧)

الوظيفة الأولى:



صيام شهر شعبان

طرق مواجهة كيد الشيطان لمنعك من الصوم:

- التوكل على الله .
- أن تجعل المغفرة هدفك.
- أن تدخل على أعمال الإيمان دون أن تهمّك العواقب.

«كان النَّبيُّ ﷺ يَصُومُ شَعْبَانَ كُلَّهُ»[1]، وهذه الوظيفة الأولى التي يتفكر فيها المؤمنون اتباعاً للنبي ﷺ، واهتداءً بهديه، أن يصوموا شعبان إلا قليلًا، إلا يومًا أو يومين، أو أن يصوموا "شعبان" كله لمن اعتاد صيام هذه الأيام. واسمعْ أَوَّلَ العقبات التي تثنيك عن ذلك لتستعد لها:

سوف يأتيك الشيطان ليقول لك: «إذا صُمْتَ "شعبان" كله سَتَضْعُفُ عن صيام "رمضان"، ولن تتمكن من أن تقوم ببقية مصالح ووظائف "رمضان"» ليعوقك عن أن تقوم بتلك الوظيفة، والاهتمام بها، حتى لا تعد نفسك، وقلبك، وروحك، وبدنك لصيام "رمضان".. للمغفرة ..للعتق من النار، إذْ ذاك أصعب شئ على الشيطان أن يراك مقبلاً طائعاً.

ماذا يُصيب المرء مثلا إذا صام "شعبان" وصام "رمضان" ؟؟ كأنه سيَحدُثَ لَهُ مَا لَمَ يَحدث من الآفات والأوجاع، أو من تضييع العمر، أو من ذهاب المال، أو من تعطيل المصالح!

كل ذلك تخويف الشَّيطان، وتسويله الذي ينبغي أن تَحْذَرَ له من أول الأمر، سيأتيك الشيطان بكل الموانع، وبكل العَقَبَات وبكل المعوقات التي تصُدُّك عن أن تقوم بهذه الوظيفة، ولست أيها المسكين وأنت شاب فارغ من مشاغِلِ الدُّنيا، ومن مشاغل الدِّين كذلك أن تتكاسل وتضعف عن القيام بهذه الوظيفة.

النبي ﷺ - على عِظَمِ مشاغله من "الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة، والقيام بمصالح المؤمنين، والقيام على معايشهم وعلى تعليمهم وفِقْهِهِم في سفَرهم وحَضَرِهم - كل ذلك لم يمنعه، لماذا ؟ لأنه متوكل على الله ،

---

(١) البخاري (١٩٧٠)، ومسلم (١١٥٦) من حديث عائشة ﵂.

قويٌ به، مدده منه سبحانه وتعالى، محبٌ لعبادته لا يستثقلها ولا يملها، له أعظم الأشواق لله والآمال فيه.

ليتوكل المرء على الله إذن ؛ ويجعل له هدفا يريد أن يصل إليه، وهو أن يغفر الله له في "رمضان"، ويعلم أنَّ المغفرة التي يود أن يُحَصِّلَها مهما بذل لها فذلك شيءٌ قليل، ولو صام عمره كله لم يكن شيئًا كثيرًا لِيُحَصِّل به مغفرة الله تعالى.

وليعلم أنه مهما أقبل على الله تعالى وتوكل عليه في ذلك فإن الله حسبه، فإن الله يكفيه. إن المشاغل التي سيُعَوِّقُكَ بها الشَّيطانُ من الضعف، ومن المصالح، ومن السفر، ومن كذا، وكذا.. الله تعالى يكفيك إياها كما قال تعالى : ﴿ **أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ** ﴾ [الزمر: ٣٦]، فإذا ما تَيَقَّنَ المرءُ أن الله تعالى يكفيه، وأن الله تعالى قادر، وقوي على أن يعينه في تحصيل هذه الوظائف، فسيعينه عليها، ولكنْ كيف يُحَصِّلها؟!

الجواب: أن يدخل المرء على أعمال الإيمان دون أن تهمه عواقبها، لأن عواقبها بيد الله وهي عواقب محمودة؛ ولأن الله -تبارك وتعالى- إذا فتح له باب طاعة هَيَّأَهُ لها، وإذا فتح له باب المغفرة هيأه لها، وقوَّاه عليها، وأَمَدَّه بِمَدَدِهِ، فكيف تخشى إذن أن يحدث لك كذا وكذا والله تعالى معك، والله تعالى مؤيدك، وموفقك أيها المسكين؟!

لما كان موسى وهارون عليهما السلام في شُغُل الله تعالى وخشيا العاقبة بقولهما: ﴿ **قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ** ﴾ [طه: ٤٥] قال لهما الربُّ ﷻ: ﴿ **قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ** ﴾ [طه: ٤٥]، فكان في شُغُلهما لما كانا في شُغُل الله تعالى.

لذلك: ينبغي أن يتعلم المرء هذه القضية في كل قضايا الإيمان، والعمل الصالح؛ ألا يلتفت إلى تخويف الشَّيطان ومعوقاته وأنه سيقع له كذا وكذا. لا،

ولكن يتذكر قوله تعالى ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، يُذكِّر بها نفسه ويُقوِّي بها قلبه.

وقد قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ «إِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»(١). فهل ستتقرب إليه بهذه الأنواع من أنواع القُرُبات ثم يحجب عنك مدده، وقوته، وقدرته، وعونه، وتوفيقه، وتسديده؟! لا.. بل على العكس.

إذا ما تقربت إليه بتلك القربات فأنت في محل التوفيق، ومحل المدد من الله تعالى، ومحل العَوْن والإصابة والسداد، محل أن تكون هذه العواقب الحسنة كلها قد هيأها الله تعالى لك فلا تخشَ حينئذٍ شيئًا. قد ورد عن النبي ﷺ أنَّه كان يقوم الليل كله، يدعو، ويُنَاشِدُ ربه، ثم يصبح ليجاهد المشركين وليقاتلهم كما رأينا في غزوة بدر.

فهذا هو مقتضى التوكل الذي يدفعك إلى المعنى الثاني الذي قد فُتِحَ له "شعبان" وهو معنى : **المجاهدة.**

معنى المجاهدة:

أنتَ مطلوب منك أن تُجاهِد نفسك أشد المجاهدة، وسيُقعدك الشَّيطانُ متعلِّلًا بضعف بدنك، وقلة وقتك، وكثرة مشاغلك، وأسفارك، وعملك، ومالك، وولدك، كل ذلك يضعفك به.

أمامك هذا الطريق الذي يدفع الله تعالى به عنك، ويُخَفِّفُ عنك، ويُقَوِّيك فيه، وهو أن تُجاهِد نفسك على ذلك، وأن تَصُدَّ عنك هذا الكيد من كيد الشيطان؛

(١) أخرجه البخاري (٧٥٣٦)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أنس ﷺ.

بتوكلك، وقوتك بالله، ومَدَدِكَ بالله، وعونك بالله، وتوفيقك بالله، وصِحَّتُكَ بالله، وكل ذلك بالله ﷻ، وإذا كان بالله فمن يكون عليه؟ لا يكون عليه أحد، ولا يتمكن منه أحد، ولا يُضْعِفَهُ شيء كما قال ﷺ: «**مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا**»[1]، وقال: ﴿ **لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا** ﴾ [التوبة: ٤٠].

فَفُتِحَ إذًا: باب "شعبان" لهذه المجاهدة التي قال الله ﷻ فيها: ﴿ **وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فقَوِيَ عَزْمُكَ، وارتفعت همتك، وبدأت وأنت مؤمِّل أن تُجاهد نفسك، وشيطانك وهواك، وأن تعلم أنَّ النَّصر القريب فيها لأهل الإيمان، وأنَّ النصر القريب فيها للتوكل واليقين، وأن تعلم أن الطاعة في الدنيا إنَّما هي صبر ساعة، وأنَّه مهما قمتَ لها فإن الله يحفظك كما قال ﷺ: «**احفظ الله يحفظك**»[2] وكما قال الله تعالى: ﴿ **إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾ [محمد: ٧].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١) من حديث أبي بكر ﷺ.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٦) وقال "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ"، وتمام نص الحديث للفائدة: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: ((كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ الله ﷺ يَوْماً فَقَالَ « **يَا غُلَامُ إِنِي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بالله، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بشيء لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بشيء لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بشيء قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ** » وفي رواية أخرى في مسند الإمام أحمد (١/ ٣٠٧) و صححها الشيخ شعيب في التحقيق: « **احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بالله، قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ** =

فها قد بدأت في تلك المعركة مع الشيطان فاستعد لها كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر:٦].

أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْراً كَثِيراً، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً »

قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى في شرح هذا الحديث: (وهذا الحديث يتضمن وصايا عظيمة وقواعد كلية من أهمِّ أمور الدين ، حتى قال بعض العلماء: "تدبرتُ هذا الحديثَ ، فأدهشني وكِدتُ أطيشُ ، فوا أسفى من الجهل بهذا الحديث ، وقِلَّةِ التفهم لمعناه")اهـ من جامع العلوم والحكم. ولأهمية هذا الحديث العظيم شرحه المؤلف في ستة دروس كاملة منذ أكثر من ست سنوات ، و قد طُبع تفريغ مهذَّب لهذه الدروس.

الوظيفة الثانية:



تعمير أوقات الغفلة بالطاعة

- كيف يغفل المؤمنون عن ربهم ؟!!
- شأن المؤمنين القرب من الله.
- فوائد إعمار أوقات الغفلة بالطاعة:
  - الفوز بمحبة الله سبحانه وتعالى:
    - القيام في نصف الليل الآخر.
    - القيام حال كون النوم أحب إليك مما سواه.
    - القيام ما بين المغرب والعشاء.
  - دفع البلاء النازل على النفس وعلى الأمة.
    - مسئولية المؤمنين في دفع البلاء النازل الآن على إخوانهم المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.
  - تحصيل الأجور المضاعفة.

كيف يغفل المؤمنون عن ربهم؟!!

نعود إلى قوله ﷺ:«**يغفل عنه النَّاس**» معناه: أن المؤمنين مُطالبون بأن يُعَمِّروا أوقات الغفلة بأعمال الذكر، والقربُ إلى الله تعالى وألا يكونوا مع الغافلين كما قال الله تعالى: ﴿ **وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ** ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

لَمَّا غفل عنه النَّاس لم يكن للمؤمنين أن يغفلوا عنه؛ لأنَّ المؤمنين متيقظون، حَذِرُون من ناحية..

ومن ناحية أخرى: أنَّ المؤمنين مقبلون على ربهم دومًا ؛ لأنَّهم لا ينقطعون عنه، وإن انقطعوا عن ربهم، وغفلوا عن ذكرهم ماتوا ..ماتت قلوبهم، وضلت أفئدتهم وبَعَدُوا عن طريق ربهم.

لذلك يصعب على المؤمنين أشد الصعوبة أن يغفلوا عن ربهم، وأن يتكاسلوا عنه، أو يبتعدوا عن طريقه، فكأنما خرجوا إلى الموت، لقد خرج أحدهم إذن عن طريق ربه الذي يحفظه ويرزقه ويقويه، فلابد أن يقْدم عليه وأن يرجع إليه ، وليس له عنه بُدٌّ سبحانه وتعالى؛ فهو ربه، وهو حبيبه، وهو الذي يُرَبِّيه، ويُراعي إيمانَه، وهو الذي يَمُدُّه بأسباب النجاة، وهو الذي ينتظره في الآخرة؛ ليُسْكِنَه جنَّتَه مع النبيين والصديقين والشهداء، فكيف يبعد عنه المرءُ؟! أو كيف يغفل عنه؟! أو كيف ينسى ربَّه سبحانه وتعالى؟!

إن خرج عن ذكره وطاعته كان كالسمك إذا خرج من الماء .. خرج إلى الموت. تلك هي عاقبة الغفلة عن الرب والابتعاد عن طريقه سبحانه وتعالى.

والمؤمنون اليوم مع الأسف لا يُحِسُّون بهذا الموت، لا يُحِسُّون بضعف الحياة كما قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٢].

وقد انصرفوا إلى حياتهم وأولادهم وأموالهم وشهواتهم وقدَّموا ذلك كله على ربهم، فكان ذلك سببَ لهوهم عنه وشقائهم وخسرانهم كذلك. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩].

ويعلمون أنه هو سبحانه وتعالى الذي يُصْلِحُ أحوالهم، وهو الذي يُدَبِّر معايشهم، وهو يُوَسِّع أرزاقهم، وهو الذي يكفيهم كلَّ ما أَهَمَّهُم في أمور دينهم ودنياهم، فكيف يلجئون إلى عدوه؟! كيف يغفلون عنه؟! كيف ينامون عن طاعته سبحانه وتعالى ؟! كيف يتكاسلون عن طريقه؟! وطريقه هو حياتهم ونجاتهم ... وطريقه هو محبتهم له وقربهم منه... وطريقه هو عُلُوهم وارتفاعهم ... وطريقه هو كل أملهم في الدنيا والآخرة.

شأن المؤمنين القرب من الله تعالى والوقوف ببابه:

قوله ﷺ: ((ذَلِكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاس عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ وَهُوَ شَهْرٌ تُرْفَعُ فِيهِ الْأَعْمَالُ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ))[1].

وكأن النبي ﷺ يُبَيِّنُ للمؤمنين أنهم لا ينبغي أن يغفلوا حين يَغْفُلُ النَّاس عن الله تعالى، بل لابد أن يكونوا متيقظين لربهم سبحانه وتعالى، غير غافلين عنه جلَّ

(١) سبق تخريجه. انظر الحاشية ص (١١).

وعلا، مقبلين عليه حال إعراض النَّاس، ذاكرين له حال غفلة النَّاس، مهتدين بهدايته حال ضلال النَّاس. لهم شأن، والنَّاس لهم شأن آخر.

شأنهم : القُرب من الله تعالى، والوقوف ببابه، والتضرع له. والدعاء، والذكر، والبكاء، والتذلل، والانكسار إلى ربهم في كل حين، لا يخرجون عن ذلك طرفة عين. وإذا خرجوا فذلك هو الخذلان المبين. فأشواقهم لمحبته ... ونعيمهم ولذتهم وشهواتهم في طاعته.

فوائد إعمار أوقات الغفلة بالطاعات :

وعمارة أوقات الغفلة بأعمال الإيمان والطاعة لها فوائدها التي ينبغي أن يُحصِّلها المؤمنون اليوم استعدادًا لذلك الشهر الكريم الذي يُعِدُّون أنفسهم فيه لرحمة الله .

فما هي فوائد تعمير أوقات الغفلة بالطاعة؟

الفائدة الأولى: الفوز بمحبة الله سبحانه وتعالى:

أوَّل هذه الأمور - وإن كنا نريد أن نشير فقط إلى معانٍ مهمة فيها - هو:

أنَّه عندما يغفل بعض النَّاس عن الله تعالى ، ويذكره ويقبل عليه آخرون، فإن هؤلاء الآخرين - الذاكرين والمقبلين - يكونون هم محل محبته سبحانه وتعالى.

يعني: إن أوَّل شيء يحصله هؤلاء المعمِّرون لأوقات الغفلة بالذكر، والعمل، والإقبال على الله تعالى أن ينالوا محبة الله سبحانه وتعالى.

لذلك: رأينا النبي ﷺ في أحاديث كثيرة يحض المؤمنين على تعمير أوقات الغفلة بالذكر ليحصلوا أعلى درجات الدين والتي هي محبة الله سبحانه وتعالى.

ومن ذلك: ما ذكره ﷺ في نصف الليل الآخر: «**فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ**»[1]

يعني: وقت هدوء النَّاس، ونومهم، وشهواتهم إذا بالنبي ﷺ يُوقِظ المؤمنين المتقين، وينبههم على أنهم ينبغي أن يَتَخَلَّوا عن تلك الشهوات من "النوم والدعة والراحة والأهل" ليقوموا إلى الشهوة العظمى والراحة القصوى، وهي محبة الله تعالى التي يُؤثِرُونها على الدنيا والآخرة، والمال، والأهل والولد..

فإن استطعت أن تكون ممن يذكرون الله في هذه الساعة فكنْ، أي في جوف الليل الآخر، وهو الذي يغفل عنه النَّاسُ اليوم - المؤمنون و غيرُهم - بأن يذكروا الله تعالى فيه: هو موضع محبة الله تعالى.

وكذلك كان ﷺ يؤخِّر صلاة العشاء إلى ثلث الليل؛ يقول كما رَوَى البخاري وغيره عنه ﷺ: «**مَا يَنْتَظِرُهَا**» يَعْنِي: العشاء «**أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ غَيْرُكُمْ ..**»[2].

وكأنه ﷺ يقول: هذه الصلاة التي تصلون إنما أنتم الذين تصلونها في الدنيا كلها حال غفلة كل النَّاس عن الله تعالى، و هذه ميزة عظيمة للمؤمنين، أن يذكروا

---

(١) أخرجه النسائي (٥٧٢)، والترمذي (٣٥٧٩) وقال: حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وابنُ خزيمة في صحيحه(١١٤٧) كلهم من حديث عمرو بن عبسة ﷺ.

(٢) البخاري (٥٦٦)، ومسلم (٦٣٨).

الله تعالى عند غفلة النَّاس عنه، وأن يُقْبِلوا عليه حال إعراض النَّاس عنه سبحانه وتعالى ..

ولك أن تتخيل أيُّها المؤمن كم من رحمة الله تعالى تنزل ، ومحبة لله تعالى تحل بهم.

يقول ﷺ: «**ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمْ اللهُ ... وَقَوْمٌ سَارُوا لَيْلَتَهُمْ حَتَّى إِذَا كَانَ النَّوْمُ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِمَّا يُعْدَلُ بِهِ نَزَلُوا فَوَضَعُوا رُءُوسَهُمْ فَقَامَ أَحَدُهُمْ يَتَمَلَّقُنِي**[1] **وَيَتْلُو آيَاتِي ..**»[2]

«**حَتَّى إِذَا كَانَ النَّوْمُ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِمَّا يُعْدَلُ بِهِ**» لا يعادله شيء هذا النوم فناموا.

«قام إليَّ أحدهم»: الذي هو في محل محبة الله له سبحانه وتعالى.

«قام إليَّ»: قام إليَّ حال تعبه، وحال مشقته، وحال كون النوم أحب إليه مما سواه، قام إليه، لا يُحِسُّ بهذا التعب، ولا يشعر بتلك المشقة، ولا يُهمّه النَّومُ والراحة التي لا يساويها شيء، بل يحس بأنَّ قيامه إلى ربه، وتلاوته لآياته، وتَمَلُّقَه ودعائه،

(١) (المَلَقُ) الوُدّ واللطف الشديد وأصله التليين ، وقيل المَلَقُ شدة لطف الودّ، و مَلِقَ مَلَقاً وتملَّقَ وتَمَلَّقَهُ وتملّقَ له تملُّقاً وتِمِلَّاقاً أي تودد إليه وتلطف له. انتهى من اللسان مادة (م ل ق). قال الطيبي رحمه الله: (الملق) بالتحريك الزيادة في التودد والدعاء والتضرع. قيل: دل أولُ الحديث على أنه من كلامه ﷺ وآخره على أنه من كلامه تعالى.ووُجِّه بأن مقام المناجاة يشتمل على أسرار ومناجاة بين المحب والمحبوب. انتهى بتصرف من مرقاة المفاتيح للملا علي القاري رحمه الله تعالى.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٦٨) ، والنسائي (١٦١٥) ، وأحمد في المسند (٥ / ١٥٣) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وابن خزيمة في صحيحه (٢٤٥٦ط المكتب الإسلامي) وابن حبان في صحيحه (٨/ ١٣٧) ، و قال الشيخ شعيب في التحقيق : حديث صحيح.

والطلب منه هو راحته وسروره، فأنساه تعبَه ومشقته؛ لأنه أحس في ذلك بنعيمه، أحس في ذلك بطمأنينته، وإقباله على ربه سبحانه وتعالى، فكانت أعلى وأجلّ وأعظم من كل هذه السعادات التي يلقاها في غير ذلك، فكانت سعادته العظمى، وقُرَّةُ عينيه التي لا تنقضي، ونعيمه الذي لا يفنى أن يقبل على ربه، وأن يتلوا آياته، وأن يتملقه سبحانه وتعالى، إلى آخر ذلك. ثم ذكر النبي ﷺ الثاني ممن يحبهم الله تعالى فقال:

«وَرَجُلٌ كَانَ فِي سَرِيَّةٍ فَلَقِيَ الْعَدُوَّ فَهُزِمُوا وَأَقْبَلَ بِصَدْرِهِ حَتَّى يُقْتَلَ أَوْ يُفْتَحَ لَهُ»

يعني: فروا من أمام العدو ، فقابلهم رجل بصدره فقاتلهم حتى قُتِلَ.

فذلك يضحك الله له[1]،فهذا يحبه ربه. كأنه لما فرَّ النَّاس عن الله تعالى، وفروا عن دين الله تعالى، ونُصْرَتِهِ إذا به هو وحده في هزيمتهم، وفرارهم، وبُعْدِهِم، وإدبارهم يُقْبِل بصدره؛ يَوَدُّ ما عند الله تعالى من الشهادة، ومن القُرب، يود ما عند الله تعالى من الأجر في الدفع عن دينه، والذَّبِّ عن إيمانه، والقيام بِنُصْرَةِ هذا الدين ملقياً بنفسه لا يضن بها.

والثالث: **«رَجُلٌ أَتَى قَوْمًا فَسَأَلَهُمْ بِاللهِ وَلَمْ يَسْأَلْهُمْ بِقَرَابَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ فَمَنَعُوهُ، فَتَخَلَّفَ رَجُلٌ بِأَعْقَابِهِمْ فَأَعْطَاهُ سِرًّا لَا يَعْلَمُ بِعَطِيَّتِهِ إِلَّا اللهُ وَالَّذِي أَعْطَاهُ»** . يعني: أعطاه بينه وبينه، أعطاه مما أعطاه الله تعالى، أعطاه مما رزقه الله تعالى، أنفق في السِّر

(١) قال رسول الله ﷺ: «ثلاثةٌ يحبهم الله و يضحك إليهم: الذي إذا تكشف فئةٌ قاتل وراءها بنفسه لله عزَّ وجلَّ.. » أخرجه الحاكم وصححه (٦٨) من حديث أبي الدرداء ﷺ مرفوعًا.

من هذا الباب الذي يحبه الله تعالى [1]. فكان ذلك الشَّخص ممن يحبهم الله تبارك وتعالى.

فرأيت هذا الحديث يُصَوِّر هذه المحبة من الله تعالى لهؤلاء الذين تركوا رَغْدَ عيشهم، ودَعَتَهُم، وسكونهم، وراحتهم، وزوجاتهم، وغِطائهم ونومهم، وأنفقوا مالهم ، وضحَّوا بأنفسهم فقاتلوا وقُتِلُوا في سبيل الله، وهكذا..

وحسبك بقوم يحبهم الله، حسبك بهم في علو درجتهم وحُسْن منزلتهم وقل ما شئت فلن تبلغ العبارةُ وصف حالهم.

فلعلك قد أخذت هذا المعنى من تعمير أوقات الغفلة بذكر الله تعالى وطاعته ليكون رصيدُك في "شعبان": أن تكون أنت المُقْبِلَ حال فرار النَّاس، والمُتصَدِّقَ حال بُخْلِهم وإحجامهم وحرصهم، أن تكون القائمَ حال نومِهم وغفلتِهم، والذَّاكِرَ لله تعالى والداعي المُتَمَلِق له حال بُعْدِهم وحال نومهم.

ذلك كله يكون سَبَبَ محبة الله تعالى لعبده، فإن الله تعالى يحب لهم ذلك.

ومثل آخر: كان المؤمنون في عهدهم الأول يقومون ما بين "المغرب" و"العشاء" صلاةً لله تعالى[1]؛ لقولهم: إن هذه ساعة يغفل النَّاس فيها عن الله تعالى، فيقومون

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ.... وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ.. » أخرجه البخاري(١٤٢٣)، وعن أبي أمامة ﷺ عن رسول ﷺ قال: «صَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ» أخرجه الطبراني في الكبير وحسّن إسناده المنذري في الترغيب ح: (١٣١٧) . ط. العلمية.

فيها لربهم سبحانه وتعالى، ساعة غفلة يغفل النَّاس عنها لا ينبغي للمؤمنين المتقين أن يغفلوا كما غفل غيرهم، وأن يناموا كما نام غيرهم، أو أن يَلْهُوا كما لَهِي غيرهم، أو يبتعدوا كما ابتعد غيرهم، أو يَفِرُّوا كما فرَّ غيرهم.

وعادة الناس اليوم هي الفِرَارُ من الطاعة والعمل الصالح والمَلَل منها، والضيق بها، يَوَدُّون شيئًا سريعًا، شيئًا خفيفًا لا يكلفهم أنفسهم أو ما دونها، شيئًا لا يكون له أثره الجميل في قلوب المؤمنين، ولا في أعمالهم وأقوالهم، كأنَّ أثقلَ شيءٍ عليهم هو إقبالُهم على ربِّهم، ومحبَّتُهم لربهم، وبذلهم لربِّهم، فضلا عن تضحيتهم لربهم! وإن كان شيءٌ لغير الله تعالى وَجَدْتَهُم يسارعون ويعطون ويبذلون، ولا يُهِمُّهُم وقت، ولا مال، ولا جُهْد، وإن كان لله تعالى وجدتَ العِلَلَ والأعذار، والبُعْد عن الله تعالى!

<u>وكان تعمير النبيِّ ﷺ وأصحابه لهذه الأوقات التي هي في محل الغفلة لهذا السبب الأول وهو: أن يحصِّلوا محبة الله تعالى، ، وأن يُجازِيَهُم ويكافئهم أحسن الجزاء، وأن يُعَظِّمَ مثوبتهم.</u>

(١) عن قتادة عن أنس ﷺ في هذه الآية ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ قال : ((كانوا يصلون بين العشاء والمغرب)). أخرجه الحاكم (٣٧٣٧) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، قال الذهبي في التلخيص : على شرط البخاري ومسلم.اهـ . وعن حذيفةﷺ((أنه صلَّى مع النبي ﷺ المغرب ثم صلَّى حتى صلَّى العشاء)) أخرجه الحاكم (١١٧٧) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه، والترمذي بنحوه وقال حسن غريب(٣٧٨١).

الفائدة الثانية: دفع البلاء النازل على النفس والأمة:

شيء آخر ينبغي النظر فيه وهو: مسئولية المؤمنين اليوم:

فإن تعمير أوقات الغفلة مما يدفع الله تعالى به السوء عن النفس وعن الأمة، والذي يجب أن يكون في اهتمام المؤمنين اليوم، كيف يدفعون عن أنفسهم ؟ وكيف يدفعون عن إخوانهم في أقطار الإسلام ما نزل بهم، وما أحاط بهم، وما حَلَّ عليهم؟ وقد فتح الله تعالى لهم هذا الشهر الكريم ليستشعروا تلك المسئولية؛ فإنَّ الله -تبارك وتعالى- يدفع بالمؤمنين القائمين، الراكعين، الساجدين، الذاكرين، الصائمين، المتصدقين، المتكافلين، المتعاونين؛ يدفع الله -تبارك وتعالى- بهم عن أنفسهم، وعن غيرهم البلاء النَّازل، إذا ما نزل البلاء فوجد قومًا يُصَلون، ووجد قومًا يصومون، ووجد قومًا يتهجدون، ووجد قومًا يذكرون رُفِعَ عنهم البلاء، ودُفِعَ بهم عن غيرهم، فهم حائط الصد الأول الآن، تُرى الهزيمة تأتي من قِبَلهم؟!

لذلك يقول الله سبحانه : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [البقرة: ٢٥١]، يعني: لولا أن يدفع الله -تبارك وتعالى- بالمؤمنين عن غيرهم لنزل بهم البلاء، وقد علمتم أنَّ الله -تبارك وتعالى- يحفظ بالرجل الصالح أهله وولده والنَّاس مِن حوله.

نزلت الملائكة بقرية ليخسفوا بها، فوجدوا فيها رجلًا قائمًا يصلي، فرفعوا عنهم البلاء. وأصل هذا القَصَص في كلام الله جل وعلا، يقول سبحانه في حفظ

مالِ الغُلامَيْنِ: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ [الكهف: ٨٢]، ويقول النبي ﷺ: «أَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي. فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ»[(١)]

يعني: أصحاب النبي ﷺ هم الأمان للأمة، ومَن بَعدَهُم كذلك كلَّما كان فيهم صالحٌ من الصالحين إذا بالله تعالى يجعله أمنةً لهم، وحفظًا لهم بما يُقَدِّمُ لله تعالى من العمل الصالح ... بما يَرفع إلى الله تبارك وتعالى من الدعاء ... بما يُرفع له مِن الذِّكر والقيام ... بما يرفع له من الصيام ... وبما يُرفع له من النصيحةِ، والأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، والعلمِ النافعِ والعمل الصالح، والسعي في مصالح المسلمين، والقيامِ عليها.. والدعوةِ إلى الله تعالى والجهادِ في سبيله.

كل ذلك يرتفع إلى الله تعالى، فإذا به يدفع البلاء عن المؤمنين. ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ [النساء: ١٤٧].

فها قد فتح الله -تبارك وتعالى- شهر "شعبان" ليتحمل المؤمنون مسئولياتهم، وليعلموا حجم هذه المسئولية وضخامتها وهم يرون أن ما نزل بغيرهم من البلاء قد تحققت أسبابه فينا، ولا حول ولا قوة إلا بالله. ولولا أنه ثمة إيمانٌ موجود، أو لوجود بعض أهلِ الإيمان يرَحِمَ الله تعالى بهم البلاد والعباد لَنَزَلَ بهم ما ساءهم، وَلَنَزَلَ بهم ما نزل بغيرهم.

لا بُدَّ إذن أن يسارع المؤمنون بالتحقق بتلك الأسباب، وأن ينتهزوا هذه الأيام التي لا مرد لها مرة أخرى، ولا رجوع؛ قال تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن

(١) أخرجه مسلم (٢٥٣١) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [المنافقون: ١٠]، يسألُ الرجوعَ وقد حِيلَ بينه وبين ذلك.

فقد فتح الله لك بابًا من أبواب الطاعة فاسلكْه لتتقرب إليه به ، واعلم أنه تكفل لك سبحانه وتعالى بالعاقبة. طالما فتح لك هذه القربات ستأتي هذه العواقب كلُّها حميدة، لأن الله تبارك وتعالى قال: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق:٢].

ذلك المخرج الذي ذكره اللهُ تعالى في الآية لابد أن يحدث للمتقين المؤمنين، وهذا مما يُخفف على المرء، ويُعَلِّمَه التوكل على الله تعالى، وأن يُسارِع إلى الطاعة والمغفرة، وأن يتسابق فيها، ولا يُهِمَّه ما يمكن أن يترتب على ذلك ؛ لأنه يعلم أنه لن يترتب إلا الخير ... لن يترتب إلا العاقبة الحسنة له ... لن يترتب على ذلك من الله جل وعلا- الذي هيأه لذلك - إلا كل توفيق وسداد، لا يخاف؛ لأن الأمور بيد الله، وأنه ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق:٣].[1]

الفائدة الثالثة :تحصيل الأجور المضاعفة :

«ذَلِكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاس عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ، وَهُوَ شَهْرٌ تُرْفَعُ فِيهِ الْأَعْمَالُ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ»[2]

ونشير إلى معنًى آخر من المعاني المهمة وهو:

---

(١) وللاستزادة من هذا المعنى المهم فليُنظَر شرح اسم الله تعالى «الوكيل » للمؤلف.

(٢) تقدم من حديث أسامة بن زيد ﷺ.

أن غفلة النَّاس تجعل هذه الطاعات شاقة على النفس؛ لأنه إذا ما كثر الطائعون لله تعالى فإنَّ النَّاس كُلَّهم يألفون الطاعة في "رمضان". ففي رمضان كل الناس صائمون، وكلهم متعاونون على هذا الأمر من أوامر الله تعالى، وكلهم لوجود الطائعين الصائمين القائمين يتأسَّون بهم، ويسيرون ورائهم، ولا يُحسُّون بمشقة الصيام، ولا بمشقة القيام. أما إذا جاءت أوقات الغفلة، وتفرَّد المرء بالطاعة كانت شاقة على نفسه وصعبة عليه؛ لأنه لا يجد مَن يتأسى به.

لذلك قال النبي ﷺ في هؤلاء المتعبدين في أيام المحنة، أو في أيام الفتنة، أو في أيام عدم وجود الطاعة والعبادة من النَّاس لله تعالى، قال:

«لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ؟! قَالَ: بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ»[1].

فأجر هؤلاء الذين يتفردون بطاعة الله تعالى في هذه الأيام التي تكثر فيها الغفلة، وتزداد فيها الفتنة أجرهم يزداد على حسب مشقة هذه الأعمال على نفوسهم، وعلى حسب ثِقَل هذه الطاعات على قلوبهم وأبدانهم، وعلى حسب ما يتحملون من تلك المشقة، ومن هذه الصعوبة، ويبذلون حتى يحققوا أقصى عبادة يمكن أن يحققوها . «أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ ». يعني: الذي يعمل العمل الصغير في مثل هذه الأيام -من أيام الغفلة- التي لا يساعده فيها أحد يُحَصِّل أجر خمسين من أعمال الصحابة..

(١) رواه أبو داود (٤٣٤١) عن أبي ثعلبة الخشني ﷺ مرفوعا إلى النبي ﷺ، وصحَّح لغيره المتنَ المذكور الشيخُ الألباني في صحيح الترغيب(٣١٧٢).

ليس ذلك معناه أنَّ أحدًا سيعمل كأعمال الصحابة، لا، وإنما العمل الواحد يوازن ذلك، أما أن يُحصِّل أحدٌ مجموع عمل الصحابي فلا يحصل أحدٌ بعدَهم تلك الدرجةَ لصحبتهم للنبي ﷺ.

لذلك كان يقول النبي ﷺ: «**أنتم تجدون على الخير أعوانا، وهم لا يجدون على الخير أعوانا**» .

ولذلك أيضاً قال النبي ﷺ: «**فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ، قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ: وَمَنْ الْغُرَبَاءُ ؟ قَالَ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاس**»[1] .

فإذا كثر الفساد، وَعَمَّ البلاء، هؤلاء هم الغرباء الذين يُحسنون ويصلحون طوبى لهم.

فتفطن المؤمنون إلى أنَّه كلما تعبدوا لربهم في أوقات الغفلة، وازدادت عبادتهم، وازداد تمسكهم بسنة النبي ﷺ ، ووجدوا في ذلك مشقةً على نفوسهم،

---

(١) رواه الآجري في ((الغرباء)) من رواية عبد الله بن مسعود ﷺ، وأخرجه الإمام أحمد بنحوه في مسنده (١/ ١٨٤) من رواية سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال الشيخ شعيب في التحقيق: إسناده جيد، وأبو يعلى (٢/ ٩٩) ، ورواه الإمام مسلم في صحيحه (١٤٥) عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ مختصرا مرفوعًا إلى النبي ﷺ ولفظه: «**بَدَأَ الإِسْلاَمُ غَرِيباً، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيباً، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**». قال الإمام النووي في شرح مسلم: أَمَّا مَعْنَى (طُوبَى) فَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَى قَوْله تَعَالَى :
﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ**﴾ فَرُوِيَ عَنْ اِبْن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ مَعْنَاهُ فَرَح وَقُرَّة عَيْن . وَقَالَ عِكْرِمَة : نِعْمَ مَا لَهُمْ . وَقَالَ الضَّحَّاك : غِبْطَة لَهُمْ . وَقَالَ قَتَادَةُ : حُسْنَى لَهُمْ . وَعَنْ قَتَادَةَ أَيْضًا مَعْنَاهُ أَصَابُوا خَيْرًا . وَقَالَ إِبْرَاهِيم : خَيْر لَهُمْ وَكَرَامَة : وَقَالَ اِبْن عَجْلَان : دَوَام الْخَيْر . وَقِيلَ : الْجَنَّة . وَقِيلَ : شَجَرَة فِي الْجَنَّة. وَكُلّ هَذِهِ الْأَقْوَال مُحْتَمَلَة فِي الْحَدِيث . وَاَللَّهُ أَعْلَم . انتهى.

وصعوبةً على أبدانهم، وكذلك وجدوا هذا الكلال الذي يمكن أن يتحملوه في سبيل قُربهم مِن ربهم، وعبادتهم لله تعالى، فإنَّ أجورهم تزداد عند الله تعالى، وإن درجتهم ترتفع عند الله تعالى، وإن الله -جل وعلا- بكرمه وَمَنِّهِ يُجْزِلُ لهم المثوبة سبحانه وتعالى ويَزيد لهم في الأجر الذي يفرحون به عندما يلقون الله تعالى. هذا المعنى يُخَفِّف على المرء الطاعاتِ المُستَثقَلة هذه الأيام، وهذه القُرُباتِ الشَّاقة على النفس في مثل تلك الأحوال. وإن كانت الطاعة لا مشقة فيها بل هي نعيم الروح ولذة النفس وبهجة القلب وقرة العين.

لذلك قال النبيﷺ : «**الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ**»[1] .

فإذا كان أصحاب النبيﷺ قد فازوا بهجرتهم إلى النبي صلوات الله وسلامه عليه؛ إيمانًا بالله تعالى وتسليمًا له، وتركًا للأهل والمال والوطن والديار، فإنَّ الله تعالى قد فتح للمؤمنين كذلك في أيام الفتنة هذا الباب الذي يشابهون به أصحاب النبي ﷺ في الهجرة إليه.

فالعبادة في الفتنة كالهجرة للنبيﷺ، فإن النَّاس في هذه العهود قد عادت إلى أهوائها، وعادت إلى اتّباع شهواتها ونزواتها كعادة أهل الجاهلية، فمن خرج منهم إلى عبادة الله تعالى، والاستقامة على أمره، والثبات على دعوته سبحانه وتعالى كان حاله كحال من هاجر إلى النبيﷺوترك الجاهلية وأهلها.

وهذا يحمل المؤمنين على أن يستمسكوا بالله تعالى وأن يعتصموا بالله تعالى، وبِسُنَّة النبي ﷺ، وأن يَزيدوا من بذلهم. فكلما زاد ذلك في مثل هذه الأيام كان الأجرُ

(١) أخرجه الإمام مسلم (٢٩٤٨) من حديث معقل بن يسار ﷺ .

الحسن هو الذي ينتظرهم عند الله تعالى وهو أجر الهجرة إلى النبي ﷺ . وكفى بذلك شرفًا وفخرًا أن يُحَصِّل المرء ذلك .

الوظيفة الثالثة:



مجاهدة النفس على الطاعات:

- ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾
- حديث المجاهدة : «وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه..»
- «قمْ إليّ أمشِ إليكَ» ، لو مشى إليك لتغيّر حالك.
- «أعني على نفسك بكثرة السجود»

مجاهدة النفس والاستضاءة بأنوارها علاجٌ للمرء الذي قد كثرت غفلته، واستراح إلى النوم والدعة والسكونِ، وإعطاءِ النفس حظها من الراحة. فإذا تعارضت الصلاة مع النوم فَيُقَدِّمَ النوم. أو أن يتعارض الصيام مع شهواته وأكله وشُرْبِهِ، ومَيْل نفسه إلى حطام الدنيا، فيُقدِّم شهواته. ونزواته وحظ نفسه على ذلك. أو يتعارض أُنْسُه بالله وذكره له مع أنسه بالخلق والغفلة فيقدم الغفلة.

وشفاء ذلك المسكين إذا ما جاءته أيام البركة أن يستعنْ بالله ﷻ وليبدأ تائباً راجعاً بقلبه إلى الله تعالى، سالكاً طريق المجاهدة، واضعاً نصب عينيه قول الحق ﷻ:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] . ليُحصل ذلك الفوز وتلك الهداية وهذه المعية.

وبذلك تنحل قسوةُ قلبه وضعفُ بدنه ودناءةُ همته، فيرى طريقه منيرا إلى الله تعالى موفقا بعد ذلك في رمضان ، وهذا هو حديث المجاهدة؛ يقول الله ﷻ في الحديث القدسي:

«وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْه، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِه، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِه، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وهذا الحديث يُبيِّن الواقع الذي نحن فيها؛ لأنَّ المرء يسمع هذا الكلام، ولم يتحقق بشيء منه، مَنْ الذي كان له ربه سبحانه وتعالى يده وسمعه وبصره - على طريقة اعتقاد السلف - وصار إلى الحالة التي إذا دعاه استجاب له، وإذا استعاذه أعاذه سبحانه وتعالى؟

وهذا المقام لا يتأتى إلا بعد أن يُتْقِن العبدُ فرائضَه، ثم بعد ذلك يجاهد نفسه على التزود من تلك النوافل؛ فلا يُبقي في وقته، ولا جُهده ولا ماله، ولا صدقته مجالاً إلا وقد جاهد فيه نفسه، وتقدَّم فيه إلى الله تعالى بكل ما يستطيع كما قال المولى ﷻ: «إِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا »[1].

وهذا الحديث يشير إلى تقدم السير إليه سبحانه؛ "الشِّبر والذِّراع والباع"، لا يتكلم الحديث عن الواقع المؤلم الذي نحن فيه وهو: التأخر، والتردد، والتشكك، والنوم، والدعة، والكسل والسكون إلى ما هو فيه المرء من الحالة السيئة، وإنما ذلك العبد المحبوب المتقرِّب إلى الله تعالى في تَرَقٍ مستمر إلى الله تعالى؛ ينتظر هذا الجزاء «وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»[2]، «كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا»[3].

(١) أخرجه البخاري (٧٥٣٦)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أنس ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

لذلك قال: «**إِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا**»[1].

فهذا إذًا شهر المجاهدة التي نسمع عنها، والتي نذكرها، ونكررها، والحال كما هو، لا يستقيم على العبادة.

وهذا يُبَين أنك ما مشيت الشِّبر ذلك إلى الله، بل إنك لم تقم إليه أصلًا كما قال في الحديث الآخر: «**يَا ابْنَ آدَمَ: قُمْ إِلَيَّ أَمْشِ إِلَيْكَ**»[2].

وكأنها الحال التي نحن فيها وهي: حال « **قُمْ إِلَيَّ أَمْشِ إِلَيْكَ**» إذا بك لم تقم فعلًا! مَنْ الذي قام فمشى إليه؟ ولو مشى سبحانه إليه لتَغيَّر حاله: «**قُمْ إِلَيَّ أَمْشِ إِلَيْكَ**»[3]..

وانظُر إذا هو قد أقبل عليك سبحانه وتعالى إلى ما تكون فيه من الحِفظ والاستقامة والتوفيق والسَّداد، وما تكون فيه من حُبٍّ للآخرة، وزهدٍ في الدنيا، وإقبال على الله تعالى. لأنه قد أقبل عليك، فإذا أقبل عليك ماذا تريد بعد ذلك؟!

ومن هنا علمتَ أنَّه لم يُقْبِل عليك الإقبالَ الذي تثبت به، والإقبالَ الذي ترقى به، والإقبال الذي يحبُّه سبحانه وتعالى، فتكون محبَّتُه أحبَّ إليك من كل شيء،

(١) أخرجه البخاري (٧٥٣٦)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أنس ﷺ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٤٧٨)، قال المنذري في الترغيب (ح:٤٧٧١): "رواه أحمد بإسناد صحيح"

(٣)أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٤٧٨)، قال المنذري في الترغيب (ح:٤٧٧١): رواه أحمد بإسناد صحيح.

ويكون تقربك إليه أولى عندك من كل شيء. بل أنت لم تُقْدِم هذا التقدم الذي لو قدمته سبحانه وتعالى وجدت عاقبة ذلك في حالك المتدهور، وفي أحوالك السيئة التي تُعاني وتشتكي منها، والتي لم تحاول أن تجاهد نفسك على تغييرها.

«قُمْ إِلَيَّ أَمْشِ إِلَيْكَ» لذلك أمرك أن تقوم، فكأنَّهُ يخبر في هذا الحديث عن حال المرء مقارنة بحال المقربين؛ أن المرء لم يقم بعد، بل ما زال مُخْلِدًا إلى الأرض ... ما زال مربوطاً بشهواته ونزواته ... مُقيَّدًا بمعاصيه وذنوبه ... كلما أراد أن يقوم قيَّدته معاصيه وشهواته، وجذبته إلى الأرض.

ويُبين رسول الله ﷺ طريق المجاهدة في حديث آخر عندما قال ربيعة بن كعب رضي الله عنه للنبي ﷺ لمَّا قال له: «سَلْ . فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الجَنَّةِ. قَالَ: أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟ قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ ، قَال: فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُود»[1].

فبكثرة السجود يصل المرء إلى هذه الأشواق العالية من مصاحبة النبي ﷺ في الجنة ، ولا تتأتى هذه الأشواق العالية من هذه الأماني التي نحن فيها، ولا من هذا التسويف الذي يقوله المرء: «غدًا إن شاء الله! عندما يأتي رمضان ... عندما يأتي شوال ... عندما يأتي العشر ... عندما انتهي من هذا الشُّغل ... عندما أُنهي فترة التجنيد ... عندما أنتهي من الدراسة ... عندما انتهي من مشكلة الزواج ... عندما أرجع من السفر.. »

وكأنَّ المرء يملك قلبه! وكأنَّه يملك عمره ! من الذي يملك قلبه أو عُمره؟!

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٩) من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه.

واعلم أن مجاهدة النفس حال مشقة العبادة درجتها عالية، وأنها – أي العبادة- كلما شَقَّت عليه زاد ثوابها، وكلما شقت عليه العبادة احتاج إلى هذه المجاهدة. وهذه المجاهدة هي التي نفتقدها اليوم.

لذلك يبدو أننا في هذه الأحوال لم نتحرك شبرًا ولا ذراعًا ولا شيئًا، بل لم نقم من مكاننا الذي نحن فيه إلى الله تعالى، ومَنْ حاول أن يقوم رجع مرة أخرى فجلس واستكان واطمأن إلى ما هو فيه من الحالة السيئة التي يقاومه فيها نفسه وشيطانه وهواه، ويصعب عليه بعد ذلك أن يقوم لله تعالى.

إذا فتح الله -جلَّ وعلا- لك بابًا مِن أبواب الطاعة، فرددته ولم تعبأ به فأنَّى يفتح لك ذلك الباب مرة أخرى؟!

وهذا هو سبب الحرمان الذي نحن فيه، أن المرء لا يجاهد نفسه، وتراه يجاهد نفسه على الدنيا، ويحملها ويسافر بها، ويُتْعِبُها، ويشقى بها، ويسهر بها، ويتعارك لها، ويتطاحن فيها؛ ليحصل زائلًا، وربما لم يُحَصِّله، وإذا جاءت الآخرة أخذها بهذا الضعف وهذه الاستكانة، وهذا النوم وهذا الكسل، وكأنه لن يرحل إلى الله! وكأنه لن يقف لرب العالمين! وكأنه لن يُسأل ولن يُحاسب! وكأنَّه لن يتعرض لأحوال كلها محِن وكروب لا يستطيعها أحد، وفوق ما يتحمله طاقة النَّاس ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المطففين: ٦] [1].

---

(١) ونكتفي بهذا القدر المختصر من الكلام على معاني المجاهدة، ولمزيد من التفصيل والتوضيح لمعاني المجاهدة في الطاعات ولشرح الآيات والأحاديث فراجع رسالة " والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سُبُلنا" للمؤلف.

الوظيفة الرابعة:



تجهيز أفضل الأعمال لرفعها لرب العالمين

- رفع الأعمال حال الصوم أدعى للقبول.
- استعد في شعبان تجد حلاوة الطاعة في رمضان.
- لا يرتفع إلى الله إلا ما كان خالصا لوجهه الكريم:
    - التحذير عن الخروج عن حد الإخلاص
    - بركة الإخلاص.
    - شهر "شعبان" هو شهر الإخلاص.

رفع الأعمال حال الصوم أدعى للقبول:

وهنا معنى جديد في قوله: ((تُرفع فيه الأعمال إلى رب العالمين))؛ ورفع الأعمال إلى رب العالمين:على ثلاثة أنواع: يُرفع إليه عملُ الليلِ قبلَ عملِ النَّهارِ،ويُرفع إليه العملُ يومَ "الاثنين" و"الخميس" ، ويُرفع إليه العملُ في شهر "شعبان" خاصةً.

فذكر النبي ﷺ أن الأعمال تُرفع إلى الله تعالى رفعًا عامًا كل يوم ، قال ﷺ: **«يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ- كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»**(1) .

ثم تُرْفع كل أسبوع يوم "الاثنين" و"الخميس" كذلك الأعمالُ إلى الله، **ثم** الرفع في "شعبان" بالذات وهو رفع مهم، وهو الرفع الثالث الذي تُرفع فيه الأعمال، وتُعرض على الله تعالى، وانظر إلى قول النبي ﷺ في هذه الحالة، وهو قوله ﷺ: **((تُرفع فيه الأعمالُ إلى رب العالمين، فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ)))**

فالأعمال ترفع كلها إلى الله في هذا الشهر، أتريد أن تُرفع لك أعمال أم لا؟ وهل تريد أن تُرفع لك أحسن الأعمال أم لا؟

هذان الأمران المهمان: أن الأعمال كلها تُرفع، فيحب أن ترفع وهو صائم، ويحب أن تُرفع الأعمال على أحسن أحوالها.

---

(1) أخرجه البخاري (٥٩٢٧) ، ومسلم (١١٥١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

المعنى إذًا هنا:

ماذا تريد أيها المسكين أن يُرفَع لك إلى الله؟ أن ترفع الملائكةُ صحائفَ النَّاس إلى الله، فلا توجد في صحيفتك أعمالٌ، أو أن ترفع الملائكة الصحائف إلى الله تعالى وفيها أعمالك، ولكنها أعمال خسيسة وقليلة، لا تساوي شيئًا.. ؟!

«تُرفع فيه الأعمال إلى رب العالمين»

تُرفع فيها الأعمال، فأحب أن يُرفع ليَ بعض الأعمال فقط؟ لا بل يجب أن يُرفع له كلُّ الأعمال، ليس كذلك فقط، ولكنه يجب أن ترفع فيه الأعمال إلى الله وهي في نهاية القبول. لا يمكن أبداً أن يكون قول النبي ﷺ: أن ترفع بعض الأعمال، وأن يترك بقية الأعمال إلى الغَفِلَة؛ هذا يتعارض مع قوله: «**يغفل عنه النَّاس**».

لذلك: يريد أن تُرفع فيه أحسن الأعمال وأكثر الأعمال –وأعماله كلها حسنة وأوقاته كلها عامرة ﷺ ؛ لأنه لا يمكن أن يرضى بأن تُرفع فيه بعض الأعمال، ولا أن تُرفع فيه الأعمال التي لا تساوي أن تُرفع إلى الله، وإنما يريد أن يقول: تُرفع فيه ما يتمكن المرء فيه من عمل لا يقصر فيه، فيُرفع له فيه الأعمال كافةً التي يمكن أن يعملها، في نفس الوقت يُرفع فيه أعمال تُبيِّض وجهه عند الله.

«**تُرْفَعُ فِيهِ الْأَعْمَالُ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ**»[1].

(١) سبق تخريجه.

يعني: لَمَّا رُفِعَت الأعمال، وعُرِضَت على الله تعالى، فماذا تختار لنفسك أن يُعْرَضَ عليه؟ ما يُبَيِّضُ وجهك أم ما يُسَوِّدُ وجهك؟! ما يُقْبَل أم ما يرد؟! ما يكون سببًا لجزيل الثواب أم لقلة الثواب؟..

لا شك أنَّ النَّبِي ﷺ يختار الدرجة العالية الرفيعة التي يُؤدي بها، والتي تكون سببًا يُعلِّم بها ويُنبِّه بها المؤمنين على أن يكونوا على هذا الحال الذي يحبه النبي ﷺ.

وَرَفْعُ الأعمال إلى الله تعالى مع كونه صائمًا أَدْعَى إلى القبول عند الله تعالى، وأحبَّ إلى الله جل وعلا، وأن يتقبل صالح عمله كله سبحانه وتعالى، وأن يُثِيبَه عليه أعظم الإثابة، وأن يكافئه عليه أعظم مكافئة، وهو ما يسعى إليه المؤمنون تأسيًا واقتداءً بالنبي ﷺ.

استعد في شعبان تجد حلاوة الطاعة في رمضان:

ولهذا المعنى كان "شعبان" تقدمة لـ"رمضان"..

إذا كان الحال كذلك في "شعبان" وهو شهر يصوم فيه ﷺ استحبابًا فما بالك عندما يجيء الصوم الواجب الذي به تُغفر الذنوب، ويُرحم النَّاس، وتُعتق رقابهم من النار؟!

فإذا جاء "رمضان" كما يقول ﷺ: «**إِذَا جَاءَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ وَصُفِّدَتْ الشَّيَاطِينُ**»[1] .

تُرى ماذا تكون حاله ﷺ في رمضان؟

وكأنَّه إذا رُفع له في "شعبان" أعظمُ الأعمال وهو صائم، وأحسنُها وهو صائم، وأقربُها إلى القبول وهو صائم من كل ما يمكن من عمل؛لأنه يقول: «**تُرْفَع فيه الأعمال إلى رب العالمين**».

تُراه يُرفع فقط الصومُ، تراه فقط يرفع القرآنُ، تراه فقط يرفعُ الذكرُ، تراه فقط يرفع القيام، تراه فقط يرفع العلم النافع، أو تراه فقط ترفع الدعوة، والأمر بالمعروف، أو الصدقة أو الزكاة، أو السعي على مصالح المسلمين، أو القيام بحوائجهم، أو الإصلاح بينهم؟ أو الأخلاق العالية الحسن.

كل ذلك يرفع له فإذا جاء "رمضان" إذن: كان على هذا الحال الحسن، قد رُفعت الأعمال وقُبلت، وزُكيت النفوس والقلوب، وصار المرء أهلًا لهذه العبادة، وأهلًا لهذه الرحمة، وأهلًا للعتق من النار. دخل المرء على "رمضان" وقد وجد حلاوة الإيمان، ووجد حلاوة الصيام والقيام، ووجد حلاوة الذكر والطاعة، وأخرج زكاته وصدقته، وأخذ حظه من أنوار المجاهدة التي بها تُرفع الأعمال إلى رب العالمين، كان جديرا أن يدخل رمضان وهو في أحسن حال.

(١) أخرجه البخاري (١٨٩٩) ، ومسلم (١٠٧٩) وهذا لفظه وعند البخاري "سُلْسِلَت " بدلًا من "صُفِّدَت" .

لا يرتفع إلى الله إلا ما كان خالصا لوجهه الكريم

وهناك معنى آخر في قوله ﷺ: ((ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين)).

أيُّ الأعمال هذه التي تُرفع؟ والجواب: الأعمال التي أخلص العبد فيها لربه واتَّبع فيها سُنَّةَ نبيه ﷺ.

إنَّ عمل المرء إذا رُفع إلى الله على هذه الحالة السيئة أُلْقِيَ به في وجهه. وإذا كان هذا العمل ضعيفًا فكيف ينتظر المرءُ أن يُرفع إلى الله تعالى؟

وإنما يرفع باجتماع الهمة وقوة القلب. وعلى قدر قوة القلب والعزيمة وارتفاع الهمة وعلوها ترتفع الأعمال إلى الله تعالى. وعلى قدر ما في القلوب من الإخلاص والمحبة وتوابعها ترفع الأعمال إلى رب العالمين ﷻ.

فينبغي التنبه إلى أنَّ أيَّام الغفلة هي أيام الإخلاص وليس للنفس فيها نصيب.

إن أيام الغفلة التي تُرفع فيها الأعمال إلى الله، لا تُرفع إلا بالإخلاص؛ لأنه أشق شيء أن تَعْمَلَ والناس لا يعملون ثم لا يداخلك العُجْبُ وإظهارُ العمل.

والله تعالى يقول: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة:٥].

يعني: ألَّا يريد بعمله ذلك إلا الله؛ لأنه تُرفع الأعمال إلى الله تعالى، فإذا بالله تعالى يلقي بهذه الأعمال ويَرُدَّها، وتسأله الملائكة فيخبرهم أنَّ هذه الأعمال لم يريدوا بها وجه الله تعالى.

تُراك أيها المسلم المؤمن وأنت تعمل العمل على غير الإخلاص لله تعالى، تُراه يرتفع إلى الله؟!

لا يرتفع إلى الله تعالى إلا ما كان خالصًا لله تعالى يُبْتَغَى به وجه سبحانه وتعالى، وكذلك في الآخرة؛ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ» . قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الشِّرْكُ الأَصْغَرُ؟ قَالَ: «الرِّيَاءُ، إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ تُجَازَى الْعِبَادُ بِأَعْمَالِهِمُ : اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ بِأَعْمَالِكُمْ فِي الدُّنْيَا، فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً؟»[1] لا يجدون عندهم شيئًا!

• التحذير من الخروج عن حد الإخلاص

إنَّ معاملات المؤمنين اليوم - إلا من رحم ربي - قد خرجت عن حدِّ الإخلاص لله تعالى؛ حتى وَهُمْ يعبدون الله -تبارك وتعالى- يحبون أن يُمدحوا على هذه العبادة، والذي يُوَفِّقَه الله تعالى مثلًا لِأَنْ يقوم ليلة، يَوَدُّ أن يطلع عليه النَّاس ليَرَوْه وهو يصلي. وهذا الصائم يود أن يَعْلَمَ النَّاسُ بصيامه، لا يريد أن يخفي صيامه، ولا أن يخفي عبادته، وإنما يريد أن يطلع النَّاس عليها ليمدحوه عليها، أو يريد من النَّاس ترك المذمة، أو يريد من النَّاس العِوَض على ذلك، حتى في معاملاته هذا المسكين مع النَّاس لو أحسن إلى النَّاس إذا به لو أساءوا إليه يقول: «قد فعلت لهم كذا وكذا، وعملت لهم كذا وكذا، ثم يعاملونني بكذا وكذا، وهذا آخرته وهذا رد الجميل، وهذا.. »

---

(١) أخرجه الإمام احمد (٥/ ٤٢٩) عن محمود بن لبيد ﷺ يرفعه ، قال المنذري في الترغيب(ص ٥٠ ط. العلمية): رواه أحمد بإسناد جيد. اهـ ، ومحمود بن لبيد راوي الحديث: هو مَحْمُودُ بنُ لَبِيْدِ بنِ عُقْبَةَ بنِ رَافِعٍ أَبُو نُعَيْمٍ الأَنْصَارِيُّ، الأَوْسِيُّ، الأَشْهَلِيُّ، المَدَنِيُّ.وُلِدَ بِالمَدِيْنَةِ فِي حَيَاةِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ. اختلف العلماء في صحبته لكن جزم البخاري بأن له صحبة، ورجح ابن عبد البر وابن حجر بان له صحبة ﷺ . توفي سنة ٩٦هـ و قيل ٩٧ هـ بـ المدينة (انظر تهذيب التهذيب) بتصرف.

فيتضح بذلك أنه لم يكن مخلصًا في عمله ولا في صحابته ولا في صداقته، ولم يكن مخلصًا كذلك في مقاطعته . إنما غضبه لنفسه، وصداقته لنفسه، وانتظاره لأجر النَّاس له، ورد المكافئة والجميل، وكفِّ الشر والأذى، إلى آخر هذه النوايا السيئة التي لا يفهمها المرء من نفسه، فإذا ما ظهرت الحقائق، وجاء الامتحان، وجدتَّ أنَّ كلَّ ذلك لم يكن لله تعالى، وإنما كان لأنفسهم، وكان لتحصيل مصالحهم النفسية والمالية التي هي بعيدة كل البعد عن الله تعالى ... بعيدة عن إرادة وجهه سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان٩] . لا يريدون جزاءً ولا شكورًا مِن أحد، وإنما قدَّموا ما قدموا ينتظرون ما عند الله، فإذا لم يعطهم المولى سبحانه وتعالى لن يعطيهم أحد، وإذا ما عملوا هذه الأعمال على انتظار هذا الرياء، أو على انتظار السُّمعة، أو على انتظار الشُّهرة بين النَّاس، ومدح الناس لهم، أو مكافئتهم، أو القيام بحقوقهم، أو الحُزْن عند تقصير الناس على القيام بواجباتهم و السؤال عنهم، يقول أحدهم :«سألتُ عنه فلم يسأل عني، وأعطيتُه واحتجتُ فلم يعطني، وفعلتُ.. وفعلتُ..». وكل ذلك ليس من الإخلاص لله تعالى.

قال رَسُول الله ﷺ: « إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّار ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ

فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ »[1].

ذكر النبي ﷺ في هذا الحديث أوّل من تُسِعَّر بهم النار يوم القيامة، هذا الذي قد تصدَّق لله تعالى، وهذا الذي قُتِلَ في سبيل الله، وهذا الذي تعلَّم العلم، كل هؤلاء أول من تُسَعَّر بهم النار. هذا الذي استُشْهِدَ وقتل في سبيل الله، يُعَرِّفه نِعَمَه فيعرفها، فيقول: ماذا فعلتَ فيها؟ يقول: قاتلتُ فيك حتى استشهدتُ، يُقال له: «كذبتَ»، مع أنَّه قاتل وأتعب نفسه كلَّ هذا التعب، ولكنَّه يُقال له في النهاية: «كَذَبْتَ»، لم تفعل ذلك لله تعالى، نعم! قد قُتِلتَ، نعم! قد حدث لك وحدث، ولكنك في نهاية الأمر كنت كذابًا، كَذَبْتَ لم تُرِدْ به وجه الله إنما ليقال شجاع.. اذهبوا به إلى النار. والرجل قد تصدَّق، وأعطى وأنفق، ولم يترك شيئًا إلا قد أنفق فيه، وأعطى لهذا وفعل لذلك، وقام بخدمة هذا، وسَوَّى لهذا، يُعَرِّفه نِعَمَهُ فيعرفها، فيقول: ماذا فعلت فيها؟ يقول: ما تركت بابًا لك إلا أنفقت فيه، فيُقال له: «كذبت»!

هو أنفق وقام وسعى وأعطى وتصدق، ولكن يقال: «كذبت» أيها الكذاب!

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

«إنما تصدقتَ ليُقال: جواد وقد قيل» أنت تريد أن يُقال: كذا وكذا؛ فقد أخذت حظَّك أيها المسكين في الدنيا! حظك هذا الحقير الزائل، اذهبوا به إلى النار، فيُذهب به إلى النار.

• بركة الإخلاص

وهذا الأمر هو أهم الأمور التي نفتقدها اليوم؛ لأنَّ بركة الإخلاص هي قبول العمل ونماؤه ورفعه إلى الله مع عود ذلك على القلب بالنور والقوة والحياة والترقي. أن يعمل المرء لله تعالى، أن يُصاحب لله تعالى، أن يُقاطِع لله تعالى، لا ينتظر جزاءً ولا شكورًا، وهذا المعنى مهمٌ سواء في معاملته لله، أم في معاملته للنَّاس.

وقد روى الحسن رحمه الله تعالى [1] قصةَ الإخلاص التي تُبيِّن هذه البركة؛ لأن بركة الإخلاص تظهر في الأعمال، وتزكيها وترفعها إلى الله، وربما كان العمل قليلًا، ولكنَّ المرءَ مُخْلِصٌ فيه إذا به يُرفع إلى الله تعالى، وعلى العكس ؛ العمل الكثير يُلقى في وجهه هباء منثورًا، كما ذكرت الآية، لأنه لا يريد به وجه الله تعالى.

---

(١) الحسن بن أبي الحسن يسار البصريُّ أبو سعيد مولى زيد بن ثابت وقيل جابر بن عبد الله وقيل أبو اليسر. وَكَانَتْ أُمُّ الحَسَنِ مَوْلاَةً لأُمِّ سَلَمَةَ أُمِّ المُؤْمِنِيْنَ المَخْزُوْمِيَّةِ رضي الله عنها. ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر رضي الله عنه ، وَكَانَ سَيِّدَ أَهْلِ زَمَانِهِ عِلْماً وَعَمَلاً. قال أبو بردة: أدركتُ الصحابة فما رأيت أحداً أشبه بهم من الحسن. وقال خالد بن رياح الهذلي: سُئل أنس بن مالك رضي الله عنه عن مسألة فقال: سلوا مولانا الحسن، فقيل له في ذلك فقال: إنه قد سمع وسمعنا فحفظ ونسينا.وقال سليمان التيمي: الحسن شيخ أهل البصرة. توفي في رجب سنة عشر ومائة. انظر تذكرة الحفاظ للسيوطي وسير أعلام النبلاء للذهبي.

يذكر الحسنُ هذه القصة يقول: كانت شجرة تُعبد من دون الله تعالى، فخرج إليها عابدٌ فقال: لأقطعنَّ هذه الشجرة التي تُعبد من دون الله، فاعترضه الشيطان قائلاً: إلى أين؟

قال العابد: أريد أن أقطع هذه الشجرة التي تُعبد من دون الله.

قال: ليس لك إليها سبيل.

قال العابد: لا.

فتعاركا، فَغَلَبَ العابدُ الشيطانَ، فقال له الشيطان: هل أقول لك ما أفضل من ذلك؟

قال العابد: نعم..

قال: دَعْها ولك بِذَلِك كل يوم ديناران.

قال العابد: من يضمن لي ذلك؟

قال الشيطان: أنا أضمنهما لك تحت وسادتك.

فرجع الرجل فوجد الدينارين تحت وسادته في اليوم الأول. وفي اليوم التالي لم يجد الدينارين، فقام ليقطع الشجرة، فاعترضه الشيطان قائلاً: ليس لك إليها سبيل، فتعاركا فخنقه الشيطانُ.

انظُرْ إلى بركة الإخلاص في المرة الأولى:

قال له الشيطان: "إنَّك قد خرجتَ لله في المرة الأولى، فلم يكن لي عليك سبيل"، فلم يتمكن منه الشيطان.

"فلما خرجتَ في المرة الثانية خرجت للدينارين"، خرجت لحظ نفسك، لمصلحتها، لمدحها، لحظوظ الدنيا، لشهواتها، خرجت لأنك تُعَظِّم ما في نفسك من شهوة إلى المال، إلى الجاه، إلى المدح، إلى السلطان، إلى أن يقال عنك كذا وكذا، "فلم يكن لك عليَّ سبيل".. فتمكن منه الشيطان.

وهي أعمال اليوم التي تُبَيِّن هذه القصة، وهو أن بركة الإخلاص ألّا يتمكن الشيطان من العبد، فإذا ما عمل الأعمال على غير الإخلاص لا يعبأ به الشيطان بل يتلاعب به؛ لأن المرء لم يكن مخلصاً لله تعالى في عمله، ولم يردْ به وجه الله فإذا به لا بركة له، ولا قوة في قلبه له، ولا قوة في بدنه على هذه الأعمال الصالحة، فإذا بالشيطان يَصْرَعُه، إذا قام يصرعه الشيطان، إذا قام يصرعه وهكذا، كلما أراد بعمل غير الله تعالى إذا بالشيطان يتمكن منه، وإذا به لا يستطيع أن يتقدم إلى الله تعالى، وكل أعمالنا إلا من رحم الله تبارك وتعالى يشوبها ذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

- **شهر "شعبان" هو شهر الإخلاص**

التركيز إذن في هذه الأيام على أن شهر "شعبان" هو شهر الإخلاص، ولينظر المرء في أقواله وأفعاله، وعباداته، ما يريد به وجه الله تعالى، وما لا يريد. حتى لا يدخل "رمضان" عليه وهو على هذه الحالة السيئة؛ لا ينتظر مغفرةً ولا رحمة، فهذا سبب من الأسباب العظيمة التي يخرج بها المرء من "رمضان" ليس مغفوراً له، يخرج من "رمضان" وما أحسَّ بعتقه من النار، يخرج من رمضان وما أحسَّ بإقباله ومحبته واستقامته وزهده، يخرج ولم يحس بتوكله وقربه إلى الله تعالى. خرج منه كما دخل فيه.

وقصة الإخلاص هي أعظم القصص، وأيام الغفلة هي أيام تربية النفس عليه بأن يكون المرء في ظاهره وباطنه لا يريد إلا الله سبحانه وتعالى في قوله وفعله وسره وعلانيته وظاهره وباطنه، لا يريد وجه الزائلين الذين لن يغنوا عنه من الله شيئًا.

وهذا الشهر وهو شهر الغفلة ينبغي أن يَظْهَرَ فيه الإخلاص، لذلك كان كثير مِن السَّلف: كعبد الله بن مسعود ﷺ[1] يقول: "**إذا أصبحتم صائمين فَأَصْبِحُوا مُدَّهِنين**".

حتى تذهب غُبْرَةُ الصيام، حتى لا يظن بك أحد أنك صائم، وحال بعض المؤمنين اليوم على غير ذلك، تراه يُظهر صومه، وأنّه عصبي لأنه صائم، وأنه مصفر الوجه لأنه صائم، وكذا، وكذا مما يظهره المرء، ويحاول أن يداريه، وهو يحب أن يظهر، وتصرفات المؤمنين يعلمها الله تعالى منهم قبل أن يتميزها البشر.

(١) عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُوْدِ بنِ غَافِلِ بنِ حَبِيْبٍ الإِمَامُ الحَبْرُ، فَقِيْهُ الأُمَّةِ، أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الهُذَلِيُّ، المَكِّيُّ، المُهَاجِرِيُّ، البَدْرِيُّ، حَلِيْفُ بَنِي زُهْرَةَ.
كَانَ مِنَ السَّابِقِيْنَ الأَوَّلِيْنَ، وَمِنَ النُّجَبَاءِ العَالِمِيْنَ، شَهِدَ بَدْراً، وَهَاجَرَ الهِجْرَتَيْنِ، وَكَانَ يَوْمَ اليَرْمُوْكِ عَلَى النَّفْلِ، وَمَنَاقِبُهُ غَزِيْرَةٌ، رَوَى عِلْماً كَثِيْراً. وأمُّهُ: هِيَ أُمُّ عَبْدٍ بِنْتُ عَبْدِ وُدِّ بنِ سُوَيٍّ، مِنْ بَنِي زُهْرَةَ.
عن عبد الله بن عمرٍو رضي الله عنهما قال: سمعتُ رَسُولَ الله ﷺ يقول: «**خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ مِنْ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ - فَبَدَأَ بِهِ- وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ**» رواه الإمام مسلم(٢٤٦٤)،و عَنْ شَقِيقٍ عَنْ عَبْدِ اللهَّ بن مسعود ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "فَلَقَدْ قَرَأْتُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ بِضْعًا وَسَبْعِينَ سُورَةً، وَلَقَدْ عَلِمَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ أَنِّي أَعْلَمُهُمْ بِكِتَابِ الله، وَلَوْ أَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا أَعْلَمُ مِنِّي لَرَحَلْتُ إِلَيْهِ"، قَالَ شَقِيقٌ: فَجَلَسْتُ فِي حَلَقِ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا يَرُدُّ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَلَا يَعِيبُهُ) رواه الإمام مسلم(٢٤٦٢)، ومناقبه كثيرة في الصحيحين وغيرهما، توفي سنة: ٣٢ أو ٣٣ هـ بـ المدينة.

لذلك قال: "يصبحوا مُدَّهِنين "حتى تذهب عنهم غُبْرَة الصوم ، فيظهرون للناس أنهم لا صوم ولا شيء، وإنما يَسْتَخْفُون بذلك بينهم وبين الله تعالى؛ يكفيهم أن الله تعالى يعرفهم لأن النبي ﷺ قال فيما رَوَى عن ربه: «إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي»، فهو سر بينه وبين الله تعالى، «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ»[1].

فيتعلم المرء من الصوم الإخلاص في بقية أعماله [2]، وشهر "شعبان" شهر المجاهدة على هذا الإخلاص التي يتهيأ بها لـ"رمضان".

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٢٧) ، ومسلم (١١٥١) من حديث أبي هريرة ﷺ. وانظر شرح هذا الحديث الشريف في "حال المؤمنين في رمضان" للمؤلف، وفيه أيضاً مزيد توضيح عن كون الصيام سرًّا بين العبد وبين ربِّه عز وجلَّ.

(٢) وكان أيوب السختياني رحمه الله تعالى إذا فَرَقَ قلبُه وجاء الدمعُ قال: ما أشدَّ الزكام!.

و كان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى إذا مَرِضَ يجعل عند رأسه ما يأكله الأصحاء كي لا يتشبه بالشاكين.

وكان النَّخَعي رحمه الله تعالى إذا قرأ في المصحف فدخل عليه داخلٌ غطَّاه.

وكان ابن أبي ليلى رحمه الله تعالى يصلي، فإذا دخل عليه أحدٌ نام على فراشه.وقال الحسن : كان الرجل تأتيه عبرته فيسترها، فإذا خشي أن تسبقه قام من المجلس. انتهى بتصرف من "اللطف و اللطائف" لابن الجوزي رحمه الله تعالى.

الوظيفة الخامسة:

تحصيل مغفرة الرب عز وجل في ليلة النصف من شعبان استعدادا للعتق من النار في رمضان

- إن الله ليطلع في ليلة النصف فيغفر لجميع خلقه إلا لمشرك أو مشاحن.
- التسامح بين المؤمنين قبل ليلة النصف.
- المبادرة إلى التحلل من المظالم: «فليتحلله اليوم»
- حال السلف الصالحين في ليلة النصف من شعبان.

نُذَكِّر الآن بليلة النصف من "شعبان"؛ لأنها مما يدخل معنا في الاستعداد لـ"رمضان" وهو قول النبي ﷺ:

«إِنَّ اللهَ لَيَطَّلِعُ فِي لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ فَيَغْفِرُ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ إِلَّا لِمُشْرِكٍ أَوْ مُشَاحِنٍ»[1].

وقضية الدخول إلى "رمضان" والخروج منه خروج الرحمة والمغفرة لا بُدَّ وأن يتحقق فيها تلك المغفرة في النصف من شعبان.

تُرى هؤلاء الذين قد دخلوا "رمضان" على القطيعة، وعلى التدابر، وعلى الشِّجار، وعلى البغضاء، وعلى التنافر، وعلى الغِلِّ والحسد، وسوء الأخلاق فيما بينهم. تُراهم إذا دخلوا "رمضان" يُحَصِّلون المغفرة؟!

هم لم يُحَصِّلوها في "شعبان" في الليلة التي يغفر الله فيها لكل أحد إلا المشاحن، فخرجوا من "شعبان" متشاحنين فلا يغفر لهم . تُراهم يُحَصِّلونها في "رمضان"؟! ...

لذلك كان من الاستعداد المهم لـ"رمضان" أن يأتي النصف من "شعبان" فلا يكن بين المؤمنين مُتَشَاحِنٌ .. ولا مُتَبَاغِض .. ولا مُتَقَاطِع .. ولا مُتَدَابِر، يعني: قد انتفت الشَّحناء من بينهم، وانتفت البغضاء، والتقاطع والتَّدابر، كل أحد يُهِمُّه أن

(١) أخرجه ابن ماجه (١٣٩٠) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ، وحسنه الشيخ الألباني كما في صحيح الجامع (١٨١٩).

يُغفر له، وألا يطَّلع الله تعالى عليهم فيقول: «أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا»[1] . فيطلع عليهم فيغفر لكل أحد إلا مُشْرِك أو مُشَاحِن.

قد فتح الله ﷻ هذه الليلة إذًا ليكون حال المؤمن مع الله تعالى حالًا حسنًا يستحق المغفرة في "رمضان"، وأن تكون حال المؤمنين فيما بينهم كذلك تستحق المغفرة، فلا يأتي إذًا هذا اليوم، أو تلك الليلة عليهم إلا وقد صَفُّوا ما بينهم، إلا وقد تسامحوا فيما بينهم، يرجون مسامحة الله، إلا وقد تجاوزوا فيما بينهم؛ يرجون أن يتجاوز الله تعالى عنهم، إلا وقد استسمح كل أحدٍ غيره فيما أتى في حقه؛ إن كان في عِرْضِهِ .. في ماله .. في أي شيء أن يستسمحه إيَّاه كما قال النبي ﷺ: «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلِمَةٌ لِأَخِيهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا فَإِنَّهُ لَيْسَ ثَمَّ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ»[2] .

فليتحلَّله اليوم ..اليوم! لا ينتظر لغدٍ كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الحشر: ١٨]

ولهذا المعنى - وهو مغفرة الله تعالى للمؤمنين في "شعبان" في ليلة النصف - استحب كثير من السلف أن تُقام هذه الليلة؛ بعضُهم استحب أن يقومها جماعةً في المسجد، وبعضهم قال: لا يقومونها جماعة، وإنما يقومها كل أحد بمفرده يرجو

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وفي رواية الإمام أحمد(٢/ ٥٠٦): «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ مِنْ أَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ مَالِهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ حِينَ لَا يَكُونُ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، وَإِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَجُعِلَتْ عَلَيْهِ» قال الشيخ شعيب في التحقيق: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

بذلك رحمة الله جل وعلا ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ [البقرة: ١٤٨] لسنا في باب بحث الأدلة في المسألة، وإنما قد صار قوم إلى ذلك، وصار قوم آخرون إلى منعه. والمقتصدون - في الوسط من كلا الطرفين- قالوا: لكل أحد أن يقومها في ليلته تلك لئلا يطلع الله على الناس فيجدهم مجتهدين وهو نائم..فبمَ يُحصِّل المغفرة؟![1]

فإذا غُفِر له في "شعبان" ظهرت آثار المغفرة في بقية أيام "شعبان" فأتى عليه "رمضان" على أحسن حال من أحوال المغفرة، فازداد مغفرة وازداد رحمة، وكذلك كان أهلًا لأن يأتي عليه "رمضان" فينتهي ليُعْتَق من النار.

(١) وفي مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: « وَأَمَّا صَلَاةُ الرَّغَائِبِ فَلَا أَصْلَ لَهَا . بَلْ هِيَ مُحْدَثَةٌ . فَلَا تُسْتَحَبُّ لَا جَمَاعَةً وَلَا فُرَادَى- فَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى أَنْ تُخَصَّ لَيْلَةُ الْجُمُعَةِ بِقِيَامِ، أَوْ يَوْمُ الْجُمُعَةِ بِصِيَامِ - وَالْأَثَرُ الَّذِي ذُكِرَ فِيهَا كَذِبٌ مَوْضُوعٌ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ . وَلَمْ يَذْكُرْهُ أَحَدٌ مِنْ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ أَصْلًا . وَأَمَّا لَيْلَةُ النِّصْفِ فَقَدْ رُوِيَ فِي فَضْلِهَا أَحَادِيثُ وَآثَارٌ وَنُقِلَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْ السَّلَفِ أَنَّهُمْ كَانُوا يُصَلُّونَ فِيهَا فَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِيهَا وَحْدَهُ قَدْ تَقَدَّمَهُ فِيهِ سَلَفٌ وَلَهُ فِيهِ حُجَّةٌ فَلَا يُنْكَرُ مِثْلُ هَذَا . وَأَمَّا الصَّلَاةُ فِيهَا جَمَاعَةً فَهَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى قَاعِدَةٍ عَامَّةٍ فِي الِاجْتِمَاعِ عَلَى الطَّاعَاتِ وَالْعِبَادَاتِ..» اهـ. بحروفه من مجموع الفتاوى- المجلد الثالث والعشرون.

الوظيفة السادسة:



الانكباب على كلام الله تعالى وإدمان تلاوته:

- الإقبال على القرآن في شعبان استعدادا لرمضان.

  - الحل في كلام الله تعالى.

- أوصاف القرآن وبعض المعاني المهمة المتعلقة به.

  أولا: الموعظة. ثانيا: الشفاء.

  ثالثا: الهدى. رابعا: فضل الله تعالى والفرح به لا بغيره.

  خامسا: البركة.

- أحوال القلوب المستمعة للقرآن الكريم .

- أحوال المؤمنين مع القرآن:

  الحالة الأولى: الخشوع الحالة الثانية: البكاء.

  الحالة الثالثة: قشعريرة الجسد. الحالة الرابعة: زيادة الإيمان.

  الحالة الخامسة: التأدب مع كلام الله

  الحالة السادسة: حضور القلب والتدبر

- موانع الوصول إلى أنوار وبركات وشفاء القرآن.

- كيف يسعد المؤمنون بكلام الله تعالى ويتنعمون بالإقبال عليه وتلاوته.

- التحذير من التسويف في الأعمال الصالحات.

الإقبال على القرآن في شعبان استعدادًا لشهر رمضان المعظم

كانت الخصيصة العظمى التي تميز بها "رمضان" عن غيره هو القرآن الكريم كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾[البقرة:١٨٥].

فيجب أن يكون هذا القرآن في مَحِلِّ الاهتمام الزائد للمؤمنين عن بقية الأيام؛ لأنه إذا كان المرء يستعد لـ"رمضان" بالقرآن فاستعداده به لابد أن يكون سابقًا له؛ حتى إذا أتاه "رمضان" وجَدَ حلاوة القرآن ؛ لأنه قد تدرَّب عليها، وانشرح صدره بها، ودام لسانه عليه، وأقبل على التفكُّر فيه، والتدبُّر لآياته، والتذكُّر بها، ثم أنزل القرآن الكريم الذي هو الشفاء والرحمة على أمراضه وعلله التي يخشى منها سوء العاقبة، وإلَّا خرج من رمضان لم يُحَصِّل شيئًا.

فهذا القرآن قد واجهنا هذه الأيام، ونحن في هذه الحال السيئة من ضعف العزيمة، وضعف الهمة، والركون إلى الدنيا، وكذلك حالة الغفلة التي نحن فيها، وعدم الاستعداد للقاء الله تعالى، وإنَّ مما يشفي الصدور، ويُقَوِّي العزائم، ويرفع الهِمَمَ، ويكون سببًا للرحمة، والبركة التي يريد المرء أنْ يُحَصِّلَها أن يعود المرءُ مُنْكَبًّا على كتاب الله تعالى.

فقد كان السَّلف الصالح لهم حال عجيب مع كتاب الله تعالى [1]؛ يريدون أن يُحَصِّلوا منه الشِّفاء الذي ذكر الله، و الهداية التي نَبَّه الله تعالى عليها، والبركة التي وصف بها كتابه.

أما الهداية والشفاء والبركة التي سنشير إليها إن شاء الله تعالى في القرآن الكريم، فهي مما يحتاجه النَّاس اليوم.

الحلُّ في كلام الله تعالى :

يلاحظ المرء أنَّ سَير المؤمنين والمتدينين - بصفة خاصة -في طريق الله تعالى سَيْرٌ متذبذب، متردد ليس مستقيمًا ، فضلًا عن أن يكون مترقيًا به إلى الله تعالى .

أَيْ: لا يكون في كل يوم في ازدياد ، في سيرٍ إلى الله تعالى، وإنما يسير يومًا أو يومين ، ثُمَّ يرجع عن الصلاة وعن الذِّكر، وعن القرآن، وتجد بينه وبين القرآن هذه الوَحشة. **فحَلُّ ذلك: في كلام الله تعالى.**

ثم إن المرء إذا أقبل على الشَّهوات، والصُّور والمناظِر والدنيا وشهواتها وغير ذلك وانطبع كل ذلك في قلبه حتى أخرجه إلى الغفلة، وأخرجه إلى المكروه،

(١) قال سلمة بن كهيل: كان يقال: **شهر شعبان شهر القراء**، وكان حبيب بن أبي ثابت إذا دخل شعبان قال: **هذا شهر القراء**، وكان عمرو بن قيس الملائي إذا دخل شعبان أغلق حانوته وتفرغ لقراءة القرآن. قال الحسن بن سهل: قال شعبان: يا رب جعلتني بين شهرين عظيمين فما لي؟ قال: جعلت فيك قراءة القرآن. انتهى بتصرف من لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى.

وأخرجه إلى المعاصي، وأخرجه إلى الوساوس، والخطرات السيئة التي تملأ قلبه لا يصفو له قلبه ويستقيم على طريق الله. و حَلُّ ذلك أيضا: في كلام الله تعالى.

والبركة في ذلك الزمان قد مُحِقَتْ أو كادت من كل شئ ، وهي مصيبة حَلَّت علينا بسبب قلة الطاعة والعبادة، وبسبب قلة الأُلفة، والتكافل والتراحم بين أهل الإيمان، وبسبب الإقبال على الدنيا والانشغال بها، والزهد في الآخرة والغفلة عنها، بسبب كثرة المعاصي والذنوب التي أحاطت بنا، وبسبب قلة الإخلاص والمحبة ومعرفة الله تعالى.

ارتفعت بركة الله تعالى، ارتفعت هذه البركة في الوقت والجهد ، والمال ، والولد ، فلم يَبْقَ وقت لأحد ليعمل فيه شيئًا، ولم يبق جهد ليقوم فيه بشيء، ولم يبق خُلُقٌ يستطيع أن يستوعب به شيئًا، وهكذا ارتفعت هذه البركات من بركات الله تعالى بسبب ما نحن فيه من سوء ومِن عدم رفع الأعمال الصالحة المنجية إلى الله تعالى.

و حَلُّ ذلك أيضا: في كلام الله تعالى.

وقد ذكر الله تعالى أن حل هذه المشاكل التي نواجهها إنما هي في الرجوع إلى كلامه سبحانه وتعالى؛ إذ القرآن سبب نزول البركة، وسبب انتشارها في الوقت، والجهد، والمال، والولد، والصحة حتى يستطيع المرء -كما كان أصحاب النبي ﷺ- أن يأتي بالأعمال التي لا يتخيل أنه يستطيعها.

تُراهم في هذا الوقت القصير الذي قضوه في الدنيا -رضوان الله تعالى عليهم- كانوا يستطيعون أن يفعلوا ذلك كله، أن يفتحوا الدنيا، وأن يجاهدوا، وأن يُصَلُّوا، وأن يقوموا لله تعالى، وأن يذاكروا العلوم الشرعية، وأن يسافروا المسافات البعيدة جداً للجهاد وطلب العلم، ولم يكن متيسرًا لهم هذه المركوبات التي يركبها النَّاس اليوم، ولا هذه الأمور التي تُخَفِّف عنهم مشاق الحياة، بل كانوا يتحملون كل هذه المشاق، وكل هذا التعب، ومع ذلك بُورِك لهم في وقتهم وبورك لهم في جهدهم، وبورك لهم في سعيهم، وبورك لهم في خطواتهم، وبورك لهم في مالهم وأولادهم، وبورك لهم في صحتهم؛ كان الضعيف منهم يقاتل على هذا النَّحو الذي سَمِعنا، ويُجْرَحُ ويقاتل، ويجرح ويقاتل ويعود، ولم يكن هناك ما يضمد به جراحه، أو من يقوم عليه بما تعود به صحته؟!

وسبب هذه البركات التي نزلت عليهم، وهذه الرحمات التي حَلَّت بهم هو القرآن الكريم، وانظر إلى ما رُفِعَ عنَّا منها. وإذا رُفِعَ شيء من ذلك فإنما نحن السبب، قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى:٣٠].

أوصاف القرآن الكريم :

ونذكر شيئًا قليلا من أوصاف القرآن و بعض المعاني المهمة المتعلقة به حتى يكون ذلك دافعًا للمرء لزيادة محبته للقرآن الكريم وإقباله عليه:

أولا الموعظة :

الله تبارك وتعالى يَمْتَنُّ على المؤمنين بكل هذه المنن والنعم - كما يقول ابن كثير وغيره من المفسرين - في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ۝٥٨ ﴾[يونس: ٥٧:٥٨].

ونستفتح بهذا المعنى الذي قد فُقِدَ في حياة المؤمنين..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ الموعظة هي ذلك الزَّاجِر الذي يحمل النَّاس على الطاعة، ويمنعهم عن الفحشاء والفسوق.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ يعني : تَحْمِلُكُم على الاستقامة، والبُعد عن المعصية، والسير في الطاعة. هذه الموعظة تأخذ بقلوبكم وعقولِكم إلى الله تبارك وتعالى، وهذه الموعظة مِنَّةٌ من الله تعالى لكم، حتى لا يترككم سبحانه وتعالى بغير موعظة، تثبت أقدامكم وتحفظكم في طريقه فلا تروغوا عنه ، وإنما كان من رحمته عليكم، ومِنَّتِهِ بكم سبحانه وتعالى أن أرسل إليكم هذه المواعظ في القرآن الكريم كما ذكر سبحانه وتعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ﴾[طه:١١٣]. لعلهم يتقون به المولى سبحانه وتعالى، أو يُحْدِث لهم هذا القرآن الذكرى والعِظة والاعتبار التي تحملهم على السير إلى الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ففي إضافة الربِّ لهم في قوله سبحانه: ﴿رَّبِّكُمْ﴾ دليل العناية بهم، والشفقة عليهم إذ هو مولاهم ومُرَبِّيهم بنعمه.

ثانيا الشفاء :

أُصِيب المؤمنون اليوم بأمراض كثيرة في قلوبهم وأبدانهم، وأمراض القلوب هي الأساس في ضعف الإيمان، وقلة الطاعة، والركون إلى الدنيا، والميل إلى الشهوات، ونسيان الآخرة، والغفلة عن الرحيل إلى الله تعالى، والاستعداد لذلك، والشوق إلى لقائه.

وهذا القرآن قد جاء ليستشفيَ المرء به من جميع العلل؛ من عِلل الشبهات والشهوات. وكلامُ الله تعالى صادق، ونحن المقصرون الخطَّاءون بسبب عدم تلقي هذا القرآن الكريم التلقي الحسن الذي ذكره الله تعالى في كتابه فلم ننتفع بهذه الموعظة، ولم ننتفع بهذا الشفاء.

لَمَّا قال سبحانه وتعالى : ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾[يونس: ٥٨:٥٧] لَا بُدَّ وأن يكون كذلك، فإنَّ كلام الله تعالى لا خُلْفَ له، وانظر إلينا وإلى صدورنا، وما امتلأت به من الشَّهوات والشُّبهات، وما امتلأت به من الضعف والوَهْن، وما امتلأت به من الآفات والرذائل التي كانت سببًا لضعف البدن عن السير إلى الله تعالى، والتي كانت سببًا في غفلة المرء عن تذكر آخرته والإقبال عليها، تُرى لو كان صدره هذا قد شُفِيَ مما هو وتَعافى، وقويَ على الطاعة، وصار هذا القلب مستنيرًا بنور الإيمان، مُزهرا

بِسِرَاجِه، قد انقمعت منه الشهوات، وانقطعت فيه الشبهات، سار بعد ذلك إلى الله تعالى؛ لأنه صار عَفِيًّا، قويًّا حيًّا كما يقول المولى في الآيات التي سنذكرها بعد قليل إن شاء الله تعالى.

ثالثا الهُدى :

قوله تعالى: ﴿ **وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ .

والمؤمنون على هذه الحالة التي نحن فيها اليوم هدايتهم ناقصة لا شك، بدليل حالتنا التي كررنا وصفها من قبل. ثم يعود السؤال:

مَنْ الذي قد استقام على سيره، وازداد في درجاته، وقام إلى الله تعالى كما في الحديث القدسي: « **يا ابن آدم : قم إليَّ أمشِ إليك** » [1] ؟

وَمَنْ الذي أكثر وازداد من العمل الصالح، الذي أمره الله به؟

ومَنْ الذي كان على حَذَرٍ من الموت وخوف منه، إذا أصبح لا ينتظر المساء، وإذا أمسى لا ينتظر الصباح، وأخذ من دُنْيَاهُ لِآخرته، ومن حياته لموته، ومن صحته لمرضه [2] ، وسار هذا السَّير الذي يُنبئ على أنَّه قد خاف ربه وخشيه، وأنَّه قد أقبل

(١) سبق تخريجه.

(٢) وفي صحيح البخاري (٦٤١٦) عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ ﷺ قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ الله ﷺ بِمَنْكِبِي فَقَالَ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ» . وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ».

عليه لا يتردد في إقباله سبحانه وتعالى، وتَعلَّق به تَعَلُّق الذي لا نجاة له إلا به، ولا فلاح له إلا فيه، ولا خروج له مما هو فيه إلا بأن يكون مُتَعَلِّقًا بالله تعالى؟

﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾وهذا المعنى قد أكدَّه المولى -سبحانه وتعالى- في آية أخرى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت:٤٤].

وَخَصَّ الله تعالى المؤمنين في تلك الآية الأخيرة بالهداية والشفاء فيه من دون الناس. ولأهمية الهداية فإن المؤمن يطلبها بالدعاء من الله في كل ركعة يصليها ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦] لاحتياجه الشديد لها، وللازدياد منها، وليهديه طرقها وأسبابها وما يكملها. لأنَّ الظالمين لا يزيدهم القرآن إلا خسارًا كما قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء:٨٢]. فلا ينتفع بهذه الهداية والرحمة وهذا الشفاء إلا المؤمنون، وذلك على قدر إيمانهم، فالكُمَّل هدايتهم ورحمتهم وشفائهم تامة ، وغيرهم على حسب إيمانهم.

فهو كما قال المولى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ ، والمرء قد سمع الآيات هذه مرات كثيرة، ومع ذلك لم يستهدِ بهداية القرآن الكريم، بل حال المؤمنين اليوم الإعراض عن هذا الكلام، والهجر له الذي يدخل في قوله تعالى في شكوى النبي ﷺ : ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان:٣٠].

قد هجروه علمًا وتَعَلُّمًا، وتلاوةً، وحفظًا، وعملًا، ودعوةً، وشفاءً، وتحكيمًا وتحاكمًا. هذه الأنواع من أنواع الهدي قد تُرِكَت حتى لم يكن القرآن على قلوبهم بهذا

الشفاء، فهل لو كانوا مُصَدِّقين بأنَّه شفاء وأنَّه هدى، وأنَّه رحمة تراهم قد قصَّروا فيه؟!

مَن الذي حصل من ذلك شيئًا؟ من الذي حَزُنَ على أنه لم يحصل شيئًا؟ ومَن الذي حاول أن يجاهد على تحصيل شيء منها؟ ومَن الذي آلمه وأحزنه أن يبعد عن القرآن، وأن يكون بينه وبين القرآن هذه الوحشة، وأن يكون في الصَّفِّ الأخير الذي لم يُحصِّل من كلام الله تعالى لا شفاء ولا هدى ولا رحمة؟

قد جاءكم الحل من ربكم كما قال تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ الآية التي ذكرناها، وفي آية النساء كذلك: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا** ﴾[النساء:١٧٤-١٧٥].

رابعًا فضل تعالى والفرح به لا بغيره:

قال تعالى: ﴿ **وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ** ﴾، وقال أيضًا: ﴿ **قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾ فأخبرنا أن المعتصمين به سيدخلهم في رحمة منه وفضل، وأمرهم بالفرح بفضل الله لا بغيره.

تُراهُم قد فَرِحوا بشيء من ذلك، تُراهم حصَّلوا شيئًا يفرحون به، ويُسَرَّون به فيكون سبب إقبالهم على ربهم، ومحبتهم له، فتتنزل عليهم رحمته، وتحيط بهم

هدايته، ويستضيء لهم نورهم؟ إنّ الذي يُحصِّلون به ذلك هو اعتصامهم بالله، واعتصامهم بالقرآن الكريم.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ ﴾ معنى ﴿ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ ﴾ : أي اعتصموا بالقرآن النور المبين الذي أنزلناه، أو اعتصموا بالله، وكلا التفسيرين صحيح ، فعلى التفسير الأول ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ﴾ يعني: بهذا النور المبين الذي أنزلنا، ويشهد لذلك قوله تعالى : ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾[آل عمران:١٠٣]. أو اعتصموا به أي بالله على التفسير الثاني.

فعلينا إذن الاعتصام بهذا القرآن، إذ هو عِصْمَتنا التي ينبغي أن تكون هدفنا هذه الأيام، ومقصودنا هذه الأيام؛ لنزيل تلك الوحشة وذلك الجفاء ، ولرفع تلك البلايا التي نزلت علينا ، والمصائب التي حَلَّت بنا أفرادًا وجماعات ، ولنكون الأقرب إلى الله .

قوله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ هو سبحانه الذي يمن عليهم بالرحمة والفضل الذي يكون سبب الفرح، وهو خير مما يجمعون. وكأنهم لما أنزل عليهم الكتاب شفاءً لِما في صدورهم ورحمةً بهم ، وهدايةً لهم، إذا بهم يتركونه ويحاولون أن يجمعوا حُطام الدُّنيا الزائل، فذكَّرهم بأن غفلتهم عن كتاب الله تعالى مع جمعهم الدنيا كلها لا تساوي فرحهم بفضل الله ورحمته، ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ فبذلك فَلْيُسَرُّوا ... فبذلك فَلْتَنْشَرِحْ قلوبهم ... فبذلك فليتنعموا ... ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾. لا شك أن فضل الله تعالى ورحمته هو الخير الذي ينبغي أن يحرص عليه المرء.

المعنى الثاني: أن هذا الخير الذي تحرص عليه، وذلك الفضل الذي تستمسك به، وتحاول أن تحصله من ربك لن يُضيع عليك الدنيا التي تخاف عليها ، بل سيكون ذلك سببًا في أن تَحْصُل الدُّنيا التي تُضَيِّعُ بها الشِّفاء والرَّحمة والهداية والبركة، ولو حصَّلت هذه الهداية والرحمة لأتاك فضل الله: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس:٥٨].

وتُراهم إذا جمعوا هل يجمعون شيئًا لم يُكتب لهم؟ كلا، وإنما يجمعونه وقد فضَّلوه على رحمة الله ، وفضَّلوه على هداية الله، وفضَّلوه على فضل الله.

تُراهم خائبين خاسرين، أم تُراهم مسرورين فرحين بأمر الله تعالى مُنَعَّمين بهذا النعيم الذي أتاهم، مستأنسين به، مُقْبِلين عليه ، أم هم غافلون عنه؟

إن حزن المؤمنين اليوم إنما ذهابه أن يفرحوا بالله تعالى، أن يفرحوا به في طاعتهم إياه ، وفي رضاهم بقضائه وقدره، أن يفرحوا به سبحانه وتعالى فيما يعطيهم من القوة، والمدد، وفيما يعطيهم سبحانه وتعالى من النور والهداية، وفيما يقوم في قلوبهم من حلاوة الإيمان والطاعة ومشاهدة الآخرة ، فيما يكون به قوتهم على السير إلى الله تعالى ، وأن يأخذ بأيديهم إليه، ذلك يُذْهِب عنهم نَكَدَ الدنيا وضيقها ، ويُذْهِب عنهم شقاءها وعَنَتَها ، ويُذْهِب عنهم كذلك كل آلامهم، وأوجاعهم، فإذا بهم في عامة أحوالهم فرحين بالله تعالى؛ لأنه قد وَفَّقهم لِما لا يمكن لأحد أن يُوَفِّقهم إليه ، وأعانهم بما لا يستطيع أحد أن يعينهم عليه، من طاعتهم له ، ومن اجتبائه لهم، ومن إقبالهم عليه، وشرح صدورهم بشوقهم إلى ربهم، وكثرة ذكرهم له، وسكينتهم به، وطمأنينتهم إليه سبحانه وتعالى. فماذا يريد المرء بعدئذ؟

لو حَصَّل ذلك في الدنيا أو شيئًا منه حصل نعيم الآخرة ؛ لأن ذلك نعيم الدنيا، وهو علامة وأمارة على تحصيل نعيم الآخرة، مَن لم يُحَصِّله في الدنيا لا يُحَصِّله في الآخرة، ولذلك قال في الحديث: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ»[1] .

مَن الذي يحب لقاء الله ويحرص عليه ، ويسارع له، ويعمل كل العمل والجهد ليُحَصِّل ذلك الشوق، وليأتنس بذلك الأنس؟

ما الذي يمنع المؤمنين من تحصيلها؟

قد رأينا إذًا أنّ من أعظم الأعمال التي ينبغي أن يُسْتَعدَّ بها لـ"رمضان" - وهو ما افتقدناه في "رمضان" وفي غير "رمضان" وكان سببًا من الأسباب المباشرة في ضعف القلب ومحق البركة ونقص الهداية ومنع فضل الله تعالى عن المؤمنين - هو الاهتمام بكلامه سبحانه وتعالى، لذلك نَذْكُر معنى آخر مُهمًّا هو: البركة.

خامسا البركة :

وهي التي انمحقت، أو كادت من أوقات المؤمنين وجهدهم، فلم يبقَ لهم شيء فتَمُرّ أيامهم وتدور هكذا دوالَيْك، وسُرعان ما يصلوا إلى نهايتهم ، وينزلوا في محطاتهم قريبًا إلى الله تعالى ولم يحصلوا عملاً مباركاً يليق بلقاء الله تعالى.

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٧) ، ومسلم (٢٦٨٣) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ .

وهذه البركة تعود بالرجوع إلى كتاب الله؛ قال الله تعالى فيها: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[ص:٢٩].

فإذا قال الله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ ﴾ فإن تلاوته وتدبُّره، وتفهُّمه، وحِفظه وتَعَلُّمه، وتعليمه، والتحاكم إليه، والاستشفاء به من عِلل القلب والبدن، كل ذلك إذا حصَّله المرء فإنه يحصِّل به تلك البركة التي ذكر الله تعالى، وكلما ازداد المرء من ذلك ازداد بركة.

قال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾[الأنبياء:٥٠]، وقال سبحانه وتعالى أيضا: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾[الأنعام:١٥٥]. فهذه الآيات الكريمات تبين بركة القرآن في تدبر الآيات والتذكر، وهما سمتا أولي الألباب، ثم ينبني عليهما الاتباع والتقوى، فتلك طرق قد بينتها الآيات الكريمات لنزول البركة. وبعد ذلك كله فإن للقلوب مع هذا القرآن الكريم أحوال.

لذلك كان يقول أبو هريرة ﷺ: «إِنَّ الْبَيْتَ لَيَتَّسِعُ عَلَى أَهْلِه، وَتَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، وَتَهْجُرُهُ الشَّيَاطِينُ، وَيَكْثُرُ خَيْرُهُ أَنْ يُقْرَأَ فِيهِ الْقُرْآنُ. وَإِنَّ الْبَيْتَ لَيَضِيقُ عَلَى أَهْلِه، وَتَهْجُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، وَتَحْضُرُهُ الشَّيَاطِينُ، وَيَقِلُّ خَيْرُهُ أَنْ لَا يُقْرَأَ فِيهِ الْقُرْآنُ.»[1].

(١) أخرجه الدارمي في سننه موقوفا على أبي هريرة ﷺ، قال حسين سليم أسد : «إسناده صحيح وهو موقوف على أبي هريرة».اهـ، وقد رُوي بنحوه مرفوعًا بإسنادٍ فيه مقال.

وإذا نَظَرْنا إلى حال الصحابة ﷺ، وحال النبي ﷺ، وما كان يقرؤه في ركعة واحدة - صلوات الله وسلامه عليه - بالبقرة، والنساء، وآل عمران، والمائدة؛ في ركعة واحدة!!، ويَقِف عند كل آية، وإذا جاءت آيةُ رحمة دَعَا، وإذا جاءت آية عذاب تعوَّذ، وإذا جاءت آيةُ دعاء دعا، وإذا جاء استغفارٌ استغفرَ، ثم ركع ركوعًا طويلًا قَدْر هذا القيام، وسجد قَدْر هذا القيام[1].

إذا حَسِبْتَها بحساب الناس اليوم فإنَّ الليل كلَّه لا يتسع لهذه الركعة الواحدة لا يتسع لها، وهو ﷺ كان يصلي إحدى عشرة ركعة في ليله[2]، ولو حَسِبْتَها بهذا المقدار الذي نقرأه اليوم تحتاج إلى ثلاثة عشر ساعة!!

إذًا لو تَدبَّرتَ هذه المعاني التي ذكرنا لعلمتَ كيف كان القرآن سببًا للبركة في الوقت، والجهد، والمال، والنفس، والعقل، والعلم، والولد، والبيت، وكل ذلك مع حضور الملائكة، وسماعها لهذا الذِّكر والقرآن[3].

لذلك قال عمرو بن العاص ﷺ قال: «كُلّ آيَةٍ دَرَجَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمِصْبَاحٌ فِي بُيُوتِكُمْ»

---

(١) انظر روايات الحديث في صحيح مسلم (٧٧٢)، والترمذي (٢٦٢)، والنسائي (١٠٠٩)، وغيرهم من حديث حذيفة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٩٩٤)، ومسلم (٧٢٤) من حديث عائشة ﷺ.

(٣) وأخرج البيهقي رحمه الله تعالى في الأسماء والصفات عن الحسن يقول: قال أميرُ المؤمنين عثمانُ بنِ عفانَ ﷺ: «لو أنّ قلوبَنا طَهرتْ ما شبعتْ من كلام ربِّنا، وإني لأكره أن يأتيَ علي يومٌ لا أنظرُ في المصحف». وما مات عثمانُ ﷺ حتى خُرق مصحفُه من كثرة ما كان يديم النظر فيه.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: «مَنْ جَمعَ الْقُرْآنَ فقد حَمَلَ أمرًا عظيمًا؛ لقد أُدْرِجَتِ النُّبُوةُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، غير أَنَّه لَا يُوحَى إِلَيهِ»[1]، وهذا هو الحقُّ الذي ينبغي أن يكون، أن يفهمه الإنسان؛ أنه قد أُدْرِجَت النبوة بين كَتِفَيْهِ، يعني: قد حصَّل هذه الدرجة العظيمة التي فيها سببُ السعادة في الأوْلَى والآخرة، والتي ينبغي أن نُرَكِّز عليها[2] هذه الأيام؛ لنَخْرج به من هذا الوَحْل من الغفلة، والمصائب والآلام التي قد أحاطَتْ بنا.

أحوال القلوب المستمعة للقرآن الكريم:

يقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق:٣٧].

---

(١) أخرجه الآجري في «أخلاق حملة القرآن» موقوفًا على عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) يُكتفى بهذا القدر المختصر من الكلام عن بركة القرآن الكريم، ولمزيد من التفاصيل والتوضيح راجع سلسلة (من بركات وأنوار القرآن الكريم) للمؤلف، فقد ذكر فيها أن القرآن الكريم هو سبب بركة الدعوة ونورها، وكيف كانت قلوب كثير من المشركين تتحول إلى قلوب مؤمنة بمجرد سماع القرآن الكريم، وذكر أن من بركة القرآن النصر في الدنيا موضحًا ذلك بما حدث في غزوة حنين، وفي موقعة اليمامة، وذكر أيضاً آثار ظهور بركة القرآن على المرء في الآخرة، كما ذكر بعض الأحاديث النبوية الشريفة التي شددت على وجود البركة في بعض سور القرآن الكريم، كما ذكر شيئا غيرَ قليلٍ من المعاني المهمة المتعلقة بالآيات الكريمات التي تناولت بركة القرآن الكريم. كما خصص المؤلف فصلًا كاملا فريدًا للآيات القرآنية التي تحدثت عن نور القرآن الكريم، وذكر فيه كثيرا من المعاني المهمة المتعلقة بتلك الآيات.

وقد يظن ظانٌّ أن هذا الكلام بعيد عن الموضوع، ولكنه في قلب هذا الموضوع . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ وهو أن الاستفادة بما سبق من الموعظة التي وعظ الله تعالى بها المؤمنين: ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ .

ويذكر الإمام "ابن القيم" في هذا المعنى: أن القلب حتى يتأثر بهذه الموعظة، فلابد أن يكون هناك المؤثِّر الذي يُؤثِّر، وهناك المحلُّ الذي يَقْبَل هذا التأثير، ولابد أن يوجد شروط لحصول هذا التأثير ، وأن تنتفي موانع التأثير [1] .

و معنى هذا الكلام:

أن يكون هناك القرآن الكريم وهو المؤثر الذي يتأثر به النَّاس، وأن يكون هناك المحل القابل لذلك، وهو القلب، ويُشترط لذلك؛ أن يؤثر المؤثر في المحل؛ يعني : أن يؤثر القرآن في القلب؛ أن يلقى السمع والإنصات إليه ، وهو الشرط.

ورابع ما ذكره الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : أن تنتفي موانع السمع من اللهو عنه، والغفلة عنه، وعدم الإنصات له الإنصات الكافي ، وعدم الاستماع له كما قال عز وجل:

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠٤].

---

(١) انظر الفوائد لابن القيم / ص٣ .

فشرط تحصيل هذه الرحمات كما قال هو الإنصات والسمع من ناحية.

ومن ناحية ثانية: هو التلاوة والتدبر والفهم كما قال في الآية التي أشرنا إليها من قبل: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ﴾.

فبَيَّن أن تحصيل الهداية، وتحصيل البركة، وتحصيل الرحمة، وتحصيل الفضل لابد أن يتحقق له السَّمع والإنصات لتلاوته، وأن يتحقق له بعد ذلك التَّدبر والفَهْم، ثم الاتِّبَاع والعمل والتقوى كما قال تعالى: ﴿ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

وكأنَّ البركة والرحمة والهداية التي في القرآن متعلقة بالتلاوة والتدبر والإنصات والفهم والعمل كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾[البقرة:١٢١]، وأيضاً كما قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾[فاطر:٢٩].

علمت إذن هذه البداية وما عليك إلا أن تتحقق بهذه المعاني لكي تُحصِّل البركة والرحمة، وقد يسأل السائل كما يقول الإمام ابن القيم: إذا كان ذلك كذلك، فلماذا قال سبحانه وتعالى «أو» في قوله جل وعلا: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[ق:٣٧]؟

الجواب: لأن النَّاس المحصلين لذلك فريقان؛ وغيرهم لا يحصل شيئا:

الفريق الأول قلوبهم حيَّة: فهي تتأثر بالقرآن مباشرة؛ تجول في معانيه، وتتدبر في آياته، وتزداد به إيمانًا ، وتزداد به يقينًا كما سنذكر الآيات التي تدل على شيء من ذلك، وهذا هو القلب الحي الذي قال الله تعالى فيه:

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾[الأنعام:١٢٢].

فهذه الحياة هي حياة القلب الذي ليس بينه وبين القرآن حواجز، وليس بينه وبين القرآن شهوات، ولا آفات، ولا مرديات، ولا مهلكات، ولا موانع، وإنما يتنزل عليه القرآن فإذا به متدبرٌ له ، سامعٌ له، منصتٌ له، عاملٌ به، يَضَعُه على أمراضه وعِلله فيستشفي بها، والحال الأعلى الأَجَلُّ من ذلك حالُه المشرف ﷺ كما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: «**كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ**»[1] ﷺ ، يعني: انطبع هذا القرآن في القلب، فظهر على تلك الجوارح.

والفريق الثاني هو الذي قال الله تعالى فيه: ﴿أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق:٣٧].

قلبُه ليس بهذه الدرجة من الحياة، فهذا يحتاج لأن يتدبر هذه الآيات، وحتى تقع هذه الآيات على قلبه موقع الشفاء، وحتى يتنزل هذا القرآن على قلبه تَنَزُّل الرحمة، وحتى يصيب منه البركة، وحتى يصيب منه هذا النور وهذه الحياة لابد وأن يُلقِيَ السمع، وأن يجاهد أن يكون منصتًا كما قال تعالى : **﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾**[الأعراف:٢٠٤]، وأن يكون في نفس الوقت حاضر

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦ / ٩١) من حديث سعد بن هشام ﷺ. وقال الشيخ شعيب في التحقيق: حديث صحيح .

القلب مقبلًا عليه ، قد قطع كل الشواغل عنه، حتى يكون سببًا لهدايته، ودخول النور إليه.

فأنت بين أمرين:

بين قلب حي لا يحتاج لشيء غير القرآن، فهو نازلٌ عليه، متفهمٌ له، متدبرٌ له، يعمل به، يَحْزُن لوعيده، ويفرح لرحمته ويقوم بأمره، وينتهي عن نهيه، ويتعظ بقصصه ومواعظه، ويسير به السير الذي كان عليه حال النبي ﷺ، أو أنت لم تصل بعد إلى هذه الدرجة فتحتاج إلى الإنصات، وشهود القلب حتى تتنزل عليك هذه الرحمات.

ونحن كما ترون - إلَّا من رحم ربي - حالتنا ليست على الإنصات وحضور القلب حال قراءة القرآن، ولا قلوبنا هذه حيَّة من أصلها حتى تقوم بذلك.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ أي: قلب حي :﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[ق:٣٧] . إذا لم يكن على هذه الدرجة من الحياة، وهو حاضر، شاهد، يشهد قلبه هذه المعاني.

وهذا يُوضِّح لنا الأحوال التي ينبغي أن يكون عليها المؤمنون، واسمع إلى قول الله تعالى في هذه الآيات:

﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾[الزمر:١٨] هذه الأولى، وقال أيضا: ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:٣٧]، فبعد إلقاء السمع قال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ

﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ وقرآن الله تعالى وكلامه كلُّه حَسَنٌ، أما "الأحسن" هذه فهي متعلِّقة بالمُكَلَّف نَفْسِه الذي يرى هذه الأمور التي تُقَرِّبه إلى الله تعالى، فتكون في حقه هي الأحسن والأكثر تأثيرًا من غيرها وبسببها يكون أكثرَ حياةً وإقبالاً وعملاً.

ونرجع إلى السؤال المهم : كيف يحصِّل المرء هذه الأحوال؟

والجواب: أن يجاهد المرء نفسه حتى تكون حالته كحال المؤمنين مع القرآن الكريم كما وصفهم الله تعالى في كتابه العزيز. وهو ما سنذكره في الصفحات القادمة إن شاء الله تعالى.

أحوال المؤمنين مع القرآن الكريم

الحالة الأولى: الخشوع :

ذكر الله تعالى أحوال المؤمنين مع القرآن فقال:

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر:٢١].

ومعنى الآية: أنه لو أُنزل هذا القرآن على جبل رأيته خاشعًا، متواضعًا، ذليلًا. و"متصدعًا" يعني: قد تشقق من نزول القرآن عليه؛ مِنْ خَوْفِه وتأثُّرِه به.

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ لأولئك الذين لم يصلوا بعد إلى حالة الجبال الصُّم، وإلى هذه الصخور الصلدة بحيث لم يتأثروا بالقرآن، ولم يخشعوا عنده، ولم يتصدعوا لوعده ووعيده، ولم يكن سببَ موعظتهم، وسبب خشوعهم، وسبب تَذَلُّلِهم وانكسارهم، وبالتالي سبب إقبالهم على ربهم، وحزنهم لما فاتهم من حظهم من الله تعالى.

وكأنَّه يعيب عليهم أنَّ الجبال لو نَزَلَ عليها القرآن ما كان حالها كحالهم ؛ فالجبال الرواسي - هذه الجلاميد الصماء - حالها أفضل حالًا من حال هذه القلوب القاسية التي ينزل عليها القرآن فلا تتأثر وتخشع، ولا تتذلل وتتواضع!

الحالة الثانية: هي البكاء :

والحالة الثانية وهي البكاء: ذكرها القرآن الكريم كذلك ليبدأ المرء تمرينه عليها في هذه الأيام بعد الاستماع، وبعد والتدبر والإنصات وحضور القلب؛ ليكون سببًا في أن يأتي "رمضان" وقد امتلأ قلبه من كلام الله تعالى، فيكون سببًا لنزول الرحمة والعتق من النار، وأن لا يخرج من "رمضان" كما دخل فيه كما قال النبي: «وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانُ ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ »(١).

هذه المواعظ التي تهيؤه لِئلَّا يُحَصِّل الخسارة والخيبة مرة أخرى.

لذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

فينبغي للمؤمنين إذا تُلِيَ عليهم هذا القرآن أن يخروا له سُجَّدًا وبُكيًّا كما في الآية التي ذكر الله تعالى في سورة مريم: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [مريم:٥٨].

وهذا معناه أنهم إذا سمعوا هذه الآيات أصابتهم بهذا البكاء الذي يَدُلُّ على تأثرهم، وإذا البكاء هو أسرع شيء إلى أعينهم؛ لأنها قد رأت الوعد والوعيد، وشاهدت مشاهدَ الآخرة، واقترابَ رحيل الدنيا، وشاهدت القبرَ وعذابَه، والبعثَ

(١) سبق تخريجه.

وما فيه من أهوالٍ وكُرَبٍ، وشهادةِ موقفها بين يدي الله تعالى الذي يَبْعَثُ على البكاء ليلاً ونهاراً، «**وقد كان النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن يبكي، ولصدره أزيز من البكاء كأزيز المِرْجَل**» [1]، وهو القِدْر الذي يغلي الماء فيه ، وكما صوَّرهم الله سبحانه وتعالى فأجلى صورتهم وحسَّنها فقال:

﴿ **إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا** ﴾ [الإسراء:١٠٧- ١٠٩].

هذان الأمران مُهِمَّان: البُكاء، وزِيَادَة الخُشُوع.

لذلك: كان "ابن عباس" رضي الله عنهما [2] إذا تُليت الآية يقول: انتظر! هذا هو السجود فأين البُكاء؟

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بنحوه في مسنده (٤/ ٢٥ ميمنية) ، وابنُ حبان في صحيحه (٣/ ٣٠). قال الشيخ شعيب في التحقيق: (إسناده صحيح على شرط مسلم).اهـ. قال ابنُ حبان رحمه الله تعالى مُعلِّقا على هذا: «في هذا الخبر بيانٌ واضح أن التحزّن الذي أذِنَ اللهُ جل وعلا فيه بالقرآن واستمع إليه هو التحزن بالصوت مع بدايته ونهايته، لأن بداءته هو العزم الصحيح على الانقلاع عن المزجورات ، ونهايته وفور التشمير في أنواع العبادات، فإذا اشتمل التحزّن على البداية التي وصفتُها والنهايةِ التي ذكرتُها صار المتحزِّن بالقرآن كأنه قذف بنفسه في مقلاع القُربة إلى مولاه ولم يتعلق بشيء دونه» اهـ.

(٢) عَبْدُ الله بنُ عَبَّاسٍ البَحْرُ أَبُو العَبَّاسِ الهَاشِمِيُّ حَبْرُ الأُمَّةِ، وَفَقِيْهُ العَصْرِ، وَإِمَامُ التَّفْسِيْر وترجمان القرآنِ،ابْنُ عَمِّ رَسُوْلِ الله ﷺ، القُرَشِيُّ، الهَاشِمِيُّ، المَكِّيُّ، الأَمِيْرُ رضي الله عنه. مَوْلِدُهُ: بِشِعْبِ بَنِي هَاشِمٍ، قَبْلَ عَامِ الهِجْرَةِ بِثَلاَثِ سِنِيْنَ.صَحِبَ النَّبِيَّ ﷺ نَحْواً مِنْ ثَلاَثِيْنَ شَهْراً، وَحَدَّثَ عَنْهُ بِجُمْلَةٍ صَالِحَةٍ. قال فيه ﷺ:

لذلك أيضاً كان عبد الله بن عمرو ﷺ [1] يقول: ((ابْكُوا فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا بُكَاء فَتَبَاكُوا))[2]. يعني: اتلوا وابكوا، فإذا لم تبكوا فتباكوا، وهي حالة تُظهِرَ مدى ما تأثر القلب به من خشوع، فيظهر هذا الخشوع على الجوارح بقشعريرة الجلد ، قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ [الزمر:٢٣] .

وإذا لم يستطع المرء أن يبكي، أو أن يتباكى فليبكِ على موت قلبه ... فليبكِ على حاله التي لم تصل إلى هذا التأثر..

فهذا الموضوع إذًا من مُهِمَّاتِ موضوعات الدين: أن ترى نفسك خاشعًا متصدعًا باكيًا عند قراءة القرآن.

الحالة الثالثة: قشعريرة الجلد :

(اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ) أخرجه الإمام أحمد في مسنده(١/ ٣٢٨) وقال الشيخ شعيب في التحقيق: (إسناده قوي على شرط مسلم) اهـ . توفي سنة ٦٨ هـ بالطائف. انظر السير وتهذيب التهذيب بتصرف.

(١)عبدُ الله بنُ عَمْرِو بنِ العَاصِ بنِ وَائِلٍ السَّهْمِيُّ الإِمَامُ، الحَبْرُ، العَابِدُ، صَاحِبُ رَسُوْلِ الله ﷺ وَابْنُ صَاحِبِهِ، أَبُو مُحَمَّدٍ.وَقِيْلَ: أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ.وَقِيْلَ: أَبُو نُصَيْرٍ القُرَشِيُّ، السَّهْمِيُّ. وَلَيْسَ أَبُوْهُ أَكْبَرَ مِنْهُ إِلاَّ بِإِحْدَى عَشْرَةَ سَنَةً، أَوْ نَحْوِهَا.وَقَدْ أَسْلَمَ قَبْلَ أَبِيْهِ ﷺ. وَلَهُ مَنَاقِبُ، وَفَضَائِلُ، وَمَقَامٌ رَاسِخٌ فِي العِلْمِ وَالعَمَلِ، حَمَلَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ عِلْماً جَمّاً. توفي فى ذى الحجة سنة ثلاث و ستين هـ. انظر السير وتهذيب التهذيب بتصرف.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك عن عبد الله بن عمرو ﷺ موقوفا عليه (٤/ ٦٢٢) وصححه،ووافقه الذهبي بقوله: على شرط البخاري ومسلم .

وقد بيَّنت هذه الآيات معنًى آخر من المعاني التي تكون عليها حالة المؤمنين كما ذكر الله -تبارك وتعالى- في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ [الزمر:٢٣] .

إذا كانت أعينهم تبكي عند سماع القرآن فكذلك أيضاً عند سماعه تقشعر جلودهم له خوفًا وخشية من وعيد الله تعالى فيه ، ومما ذكر، ثم يصيبهم الرجاء والرحمة، فتلين هذه الجلود والقلوب مرة أخرى لله تعالى.

فبالخوف والرجاء يستطيع المرء أن يسير إلى الله تعالى.

فهذه القشعريرة التي تصيب أجسامهم، وهذا الدمع الذي تفيض به أعينهم، هو دليل حياة القلب، ودليل الإقبال على الرَّب، ودليل الاتعاظ بالموعظة والتَّذكر بهذه الذكرى التي أشار الله -تبارك وتعالى- بها إلى المؤمنين.

والمرء لا يحتاج إلى أن نقول له انظر إلى حالك أيها المسكين !! أين بكاؤك وخشوعك الذي تذكر ؟!

الحالة الرابعة: زيادة الإيمان :

ونبيِّنُ حالة المؤمنين الأُوَل في قوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ﴾ [التوبة:١٢٤].

فإذا كان الخشوع والبكاء الذي ذكرنا، وقشعريرة الجسم، والتصدع الذي ذَكر الله تعالى دليلاً على أنَّ تأثر المرء بهذا الكلام صادق، وليس كَمَن يسمع القرآن

فيبكي، ثم ينصرف إلى دنياه ولَهْوِهِ مرة أخرى، وكأن شيئًا لم يكن، أو يقشعر جلده شيئًا ،ثم يعود مرة أخرى إلى ما كان فيه من اللعب والغفلة، لا، وإنما قال المولى: ﴿ **فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا** ﴾ وهذه فيها معنيان :

المعنى الأول: هو تواصيهم حال سماع القرآن أن يقول بعضهم لبعض: ماذا أفادك القرآن؟ ازددتَ به إيمانًا أم لا؟ ارتفعتْ به درجة الإيمان أم نزلتْ؟ ازددتَ به محبَةً لله تعالى؟

ازددتَ به طاعةً واقترابًا من الله سبحانه وتعالى؟ ازددتَ به زهدًا في الدنيا وإقبالًا على الآخرة؟ ازددتَ به رفعةً ودرجةً عند الله تعالى كما أخبر النبي ﷺ عن حال صاحب القرآن : «**يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا**» [1]

﴿ **أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا** ﴾؟ فَهَلْ مِنْ سَائِلٍ يَسأَلُ عن ذلك اليوم؟!

المهم: زادتهم إيمانًا أو لا؟ الجواب : ﴿ **فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ** ﴾ [التوبة:١٢٤].

المعنى الثاني في قوله :"**يستبشرون**" ، لقد حُذِفَ مفعول الفعل هنا ليؤكد عموم الاستبشار، يعني: يستبشرون بماذا؟ يستبشرون بكل شيء، بكل ما يكون

(١) أخرجه أبو داود (١٤٦٤)، و الترمذي (٢٩١٤) وقال حديث حسن صحيح، كلاهما من حديث عبد الله بن عمروﷺ مرفوعا.

سببا لبشراهم في الدنيا والآخرة من فضل الله تعالى، يستبشرون بزيادة الإيمان ... يستبشرون برحمة الله ... بفضل الله ... برفع درجاتهم ... يستبشرون بأن الله تعالى قد أحبهم، أن -الله تبارك- وتعالى أعدَّ لهم الثواب الجزيل، وأن الله تعالى قد قَبِلَهم، وأن الله تعالى قد رفع درجتهم، يستبشرون بكل ما يمكن أن يكون من بشارة يستبشر بها المرء في الأولى، يريد بها الدار الآخرة، ويريد بها ما عند الله تعالى.

﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة:١٢٥]. نعوذ بالله تعالى من ذلك، ونحن في حال بين الحالين فانظر إلى إصلاحها.. وانظر إلى ما ينبغي أن يكون عليه قلبك حين نزول القرآن عليه.

الحالة الخامسة: التأدب مع كلام الله :

أول ما يتميز به تالي القرآن هو أن يكون متأدبًا مع كلام الله تعالى، **بأن يكون متوضئًا، مُسْتَقْبِلَ القبلة[1]، مُتَخَشِّعًا، مُطرِقَ الرأس، جالسًا كأنه يجلس بين يدي أستاذه الذي يُعَلِّمُه كلامَ الله تبارك وتعالى، مُقبلًا على كلام الله جل وعلا.**

فإذا ما تحقق له ذلك فإنه يُوشك أن يُقْبِل على كلام الله تعالى ، أما تلك الحالة التي نراها في بعض الناس؛ أن يكون أحدهم مُتَّكِئًا، أو مائلًا، أو مُتكبرًا، أو على حالة من الحالات التي تبين عدم اهتمامه وتعظيمه لكلام الله تعالى، وأنه يتلوه كما

---

(١) عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَيِّدًا، وَإِنَّ سَيِّدَ الْمَجَالِسِ قُبَالَةَ الْقِبْلَةِ" رواه الطبراني في الأوسط (ح ٢٣٥٤)،و قال المنذري في الترغيب(٤٦٦٣) : رواه الطبراني بإسناد حسن.

يتلو كلامًا آخر، أو يقرأه ويُقْبِل عليه كما يُقْبل على شيء مِن الدُّنيا، يتساوى عنده كلام الرَّب وكلام العبد، لا! لا ينبغي ذلك.

ولكن المؤمِن يكون على هيئات الأدب والخشوع والإقرار والإقبال ينتظر ذلك الفضلَ من الله تعالى. وإن كان على أي حال يأخذ فضله وأجره، ولكنه كما قال تبارك وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران:١٩١].

فبَيَّن أحسن أحوالهم أن يقرؤوا قائمين، أو أن يذكروا الله تعالى قائمين، ثم قاعدين، ثم مضطجعين. فمدحَ الكلَّ، ولكنَّه قدَّم هؤلاء القائمين..

لذلك استنبط أهل العلم منها:

أن أحسن حالة، وأتم هيئة يُقْرأ فيها كلام الله تعالى أن يكون قائمًا في الصلاة في المسجد؛ فهي تلك الحالة التي ينبغي أن يَتَحَلَّى بها المرء كما قال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [المزمل:١-٢].

فهاتان الحالتان التي ينبغي أن لا ينساهما أهل الإيمان، وأن يُلازموهما:

حالة الترتيل، وحالة البكاء.

وهما الحالتان اللتان يُقصِّر فيهما المرء في قراءته لكلام ربه، وبالتالي تقل عظمة كلام الربِّ جلَّ وعلا في قلبه، ويَقِلُّ أجر هذا المرء وثوابه، ويقل انتفاعه بهذه الآيات الانتفاع الذي يَحْيَي به القلبُ، وهذه الآيات التي إن انتفع بها المرء فَإنه يُقْبِل

على الله تبارك وتعالى، ويجد حلاوة الإيمان، وحلاوة الطَّاعة، وتَخِفُّ عليه أسباب النكد والضيق، وأسباب المعصية وشؤمها. يخف عليه ذلك كله فإذا به إنسان جديد مُقْبِل على ربه يتدبر آياته ويتلوها.

والترتيلُ يبيِّن هذا المعنى-ليست هذه الهَذْرَمة التي يقرؤها النَّاس اليوم- وليس هذه القراءة التي لا يتدبرون فيها كلام الله تعالى، وإنْ كان مِن فضله وكرمه وجوده سبحانه وتعالى أن يُعْطِي لكلِّ تالٍ لكلامه من الأجر ما يناسبه؛ لا يَحْرِمُ أحدًا، إلا أن يخرج عن حد التدبر، والتفهم، وحضور القلب، فأنَّى يكون ذلك مقبلًا على ربه؛ إذْ لا يَقْبَل الله تعالى من القلب اللاهي الغافل عنه جل وعلا؟ (١)

(١) بالإضافة إلى آداب قراءة القرآن التي أشرنا إليها نذكر بعض الآداب الأخرى مختصرة حتى تتم الفائدة، قال الإمام أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله البغدادي الآجُرِّي:
(باب أدب القرّاء عند تلاوتهم القرآن مما لا ينبغي لهم جهله: وأحب لمن أراد قراءة القرآن،من ليل أو نهار أن يتطهر،وأن يستاك وذلك تعظيم للقرآن؛لأنه يتلو كلام الرب عز وجل؛وذلك أن الملائكة تدنوا منه عند تلاوته للقرآن،ويدنو منه الملَك،فإن كان متسوكا وضع فاه على فيه،فكلما قرأ آية أخذها الملك بفيه،وإن لم يكن تسوك تباعد منه، فلا ينبغي لكم يا أهل القرآن أن تباعدوا منكم الملك ، وأحب أن يكثر القراءة في المصحف لفضل من قرأ في المصحف،ولا ينبغي له أن يحمل المصحف إلا وهو طاهر فإن أحب أن يقرأ في المصحف على غير طهارة فلا بأس،ولكن لا يمسه،ولكن يصفح المصحف بشيء،ولا يمسه إلا طاهرا،وينبغي للقارئ إذا كان يقرأ فخرجت منه ريح أمسك عن القراءة حتى تنقضي الريح،ثم إن أحب أن يتوضأ ثم يقرأ طاهرا فهو أفضل،وإن قرأ غير طاهر فلا بأس منه،وإذا تثاءب وهو يقرأ،أمسك عن القراءة حتى ينقضي التثاؤب،ولا يقرأ الجنب ولا الحائض القرآن،ولا آية،ولا حرفا واحدا،، وإن سبح أو حمد أو كبر وأذن فلا بأس بذلك، وأحب للقارئ أن يأخذ نفسه بسجود القرآن كلما مر بسجدة سجد فيها،... والذي أختار له أن يسجد كلما مرت به سجدة؛فإنه يُرضي ربَّه عزَّ وجلَّ ويغيظ عدوه الشيطان،

الحالة السادسة: حضور القلب والتدبر :

والحالة التالية التي ينبغي أن يكون عليها تالي القرآن الكريم؛ ليكون له عبرة وغذاء وشِفاء ونورًا وهداية ورحمة، يستعد بهذه الحالة لـ"رمضان" وبعد "رمضان"، وأن يكون ذلك دأبه وحاله مع الله تعالى، هذه الحالة هي حضور القلب والتدبر.

وروي عن أبي هريرة،عن النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي ، يَقُولُ يَا وَيْلَهُ أُمِرَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَعَصَيْتُ فَلِي النَّارُ» وأحب لمن كان جالسا يقرأ أن يستقبل بوجهه القبلة،إذا أمكن؛وأحب لمن تلا القرآن أن يقرأه بحزن،ويبكي إن قدر،فإن لم يقدر تباكى،وأحب له أن يتفكر في تلاوته،ويتدبر ما يتلوه،ويستعمل غض الطرف عما يلهي القلوب،ولو ترك كل شيء حتى ينقضي درسه كان أحب إلي؛ليحضر فهمه،فلا يشتغل بغير كلام مولاه،وأحب إذا درس فمرت به آية رحمة سأل مولاه الكريم،وإذا مرت به آية عذاب استعاذ بالله عز وجل من النار،وإذا مر بآية تنزيه لله عز وجل سبح الله وعظمه، وجميع ما أمرتُ به التاليَ للقرآن موافقٌ للسنة وأقاويل العلماء ، وجميع ما ذكرتُه ينبغي لأهل القرآن أن يتأدبوا به ولا يغفلوا عنه،فإذا انصرفوا عن تلاوة القرآن اعتبروا نفوسهم بالمحاسبة لها،فإن تبينوا منه قبول ما ندبهم إليه مولاهم الكريم مما هو واجب عليهم من أداء فرائضه،واجتناب محارمه،فحمدوه في ذلك وشكروا الله على ما وفقهم له،وإن علموا أن النفوس مُعْرِضَةٌ عما ندبهم إليه مولاهم الكريم،قليلة الاكتراث به،استغفروا الله من تقصيرهم،وسألوه النقلة من هذا الحال الذي لا يحسن بأهل القرآن،ولا يرضاها لهم مولاهم إلى حالة يرضاها،فإنه لا يقطع من لجأ إليه،ومن كانت هذه حاله وجد منفعة تلاوة القرآن في جميع أموره،وعاد عليه من بركة القرآن كل ما يحب في الدنيا والآخرة إن شاء الله، .... عن قتادة رحمه الله تعالى قال: "لم يجالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان،قضاء الله عز وجل الذي قضى بأنه : شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا") اهـ بتصرف و باختصار من أخلاق حملة القرآن للإمام الآجري رحمه الله تعالى .

وحضور القلب: ذكره العلماء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ [مريم:١٢]. ومعناه: أن يكون إقباله على كلام الله تعالى، مُنْصَرَف الهمة إليه، لا إلى غيره، يعني: أن يأخذ الكتاب بِجِدٍّ.

قيل لبعضهم: هل تُحَدِّثُك نفسك بشيء إذا كنت تتلو كلام الله؟

قال: وأي شيء أحب إليَّ من كلام الله تعالى حتى تُحدثني نفسي به؟!

أيها المسكين: أي شيء أحب إليك من كلام الله حتى توسوس نفسك لك به؟

وانظر إلينا اليوم !! كيف يُقبل المرء على كلام الله تعالى، فينتفي عنه الخشوع والتَّدبر والإقبال، وإذا به في سوقه ومشاكله ، وولده ، وماله ، وعِرَاكه وشِجاره وما كان، وما يمكن أن يكون حتى يخرج عن كلام الله تعالى، في صلاة أو في غير الصلاة، وإن كان عنده بقية من إيمان يقول: «إنْ شاء الله! في الصلاة التالية أكون أحسن!» وهذه الحالة لا خشوع فيها ولا تدبر ولا إقبال.

ومن ثم ينبغي أن يُقْبِل بقلبه على الله تعالى.

كان الرسول ﷺ يتلو كلام الله تعالى على الحال التي أشرنا، ثم كان يقف عند الآيات، ذكروا أنّه قام بآية واحدة يرددها طوال لَيْلِهِ ﷺ؛ وهي قوله تعالى: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[المائدة:١١٨][1].

طوال ليله ﷺ يقرأها، وقف عندها لا يتعداها! لِما ورد على قلبه ﷺ من المعاني، ولما ورد على قلبه من التدبر والتفهم، يقف عند هذه الآية، وكان ذلك كذلك أيضا في كثير من سلف الأمة الصالحين وعباد الله المتقين؛ «ذكر ابن المبارك أخبرنا شعبة عن عمرو بن مرّة عن أبي الضّحاك عن مسروق قال: قال رجل من أهل مكة

---

(١) عن أبي ذرٍّ ﷺ قال: «صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ لَيْلَةً، فَقَرَأَ بِآيَةٍ حَتَّى أَصْبَحَ يَرْكَعُ بِهَا وَيَسْجُدُ بِهَا: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة:١١٨]، فَلَمَّا أَصْبَحَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله مَا زِلْتَ تَقْرَأُ هَذِهِ الآيَةَ حَتَّى أَصْبَحْتَ تَرْكَعُ بِهَا وَتَسْجُدُ بِهَا؟ قَالَ « إِنِّى سَأَلْتُ رَبِّى عَزَّ وَجَلَّ الشَّفَاعَةَ لأُمَّتِى فَأَعْطَانِيهَا، وَهِىَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ لِمَنْ لاَ يُشْرِكُ بِالله عَزَّ وَجَلَّ شَيْئاً » . أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/١٤٩، طبعة الميمنية)، قال الشيخ شعيب في التحقيق: «إسناده حسن»اهـ.
٣٤٤٧ - وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، فَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَى إِبْرَاهِيمُ، ثُمَّ يُؤْخَذُ بِرِجَالٍ مِنْ أَصْحَابِى ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُولُ أَصْحَابِى. فَيُقَالُ إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ ﴾ [المائدة:١١٧-١١٨]. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ ذُكِرَ عَنْ أَبِى عَبْدِ الله عَنْ قَبِيصَةَ قَالَ: هُمُ الْمُرْتَدُّونَ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى عَهْدِ أَبِى بَكْرٍ، فَقَاتَلَهُمْ أَبُو بَكْرٍ ﷺ. أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (٣٤٤٧).

: هذا مقام تميم الداري ﷺ؛ لقد رأيته ذات ليلة حتى أصبح أو قرب أن يُصبحَ يقرأُ آيةً من كتاب الله ويركعُ ويسجد ويبكي: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾[الجاثية:٢١] الآية كلها .

وقال بشير : بِتُّ عند الربيع بن خيثم ذات ليلة فقام يصلي فمرّ بهذه الآية فمكث ليله حتى أصبح لم يَعْدُها ببكاء شديد .

وقال إبراهيم بن الأشعث : كثيراً ما رأيت الفُضيل بن عياض يردّد من أوّل الليل إلى آخره هذه الآية ونظيرها ، ثم يقول : ليت شِعْري! من أي الفريقين أنت؟ وكانت هذه الآية تسمى مُبكاة العابدين»[1].

(١) انظر تفسير القرطبي، تفسير الآية رقم ٢١ من سورة الجاثية .

من معاني التدبر:

والتدبر له معان أُخر، وهو: التفهم، والتخصيص، وبعد ذلك التأثر، ونُفَصِّل في هذه المعاني بعض الشيء:

المعنى الثاني والثالث للتدبر: التفهم، وتعظيم المتكلِّم عزَّ وجلَّ:

سُئل عَلِيٌّ ﷺ: «هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْوَحْيِ إِلاَّ مَا فِي كِتَابِ اللهِ؟ قَالَ: وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ مَا أَعْلَمُهُ إِلاَّ فَهْماً يُعْطِيهِ اللهُ رَجُلاً فِي الْقُرْآنِ ،وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ . قُلْتُ: وَمَا فِي الصَّحِيفَةِ؟ قَالَ: الْعَقْلُ، وَفَكَاكُ الأَسِيرِ، وَأَنْ لاَ يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ.»[1]

والتفهم يعني أن يتفهم المرء من كل آية ما يليق بها، فالقرآن الكريم قد احتوى على أسماء الله تعالى وصفاته، وأفعاله، وعلى ذِكْر الأنبياء وما حدث لهم، وعلى ذِكر المكذبين وكيف أهلكهم سبحانه وتعالى، وعلى ذِكر الجنة، وعلى ذكر النار في آياته.

فهذه الآيات التي وردت في القرآن الكريم حَظُّك من تدبرها، وتفهمها أنك إذا تَلَوْتَ كلام الله أن تمر عليك الآية فتعلم منها ما أشار الله تعالى لك به، أو شيئًا مما يريد الله تعالى أن يصل إليك، أو أن يَعْقِلَهُ ذهنك، أو أن يتدبره قلبك في هذه المعاني.

(١) أخرجه الإمام البخاري موقوفا على عليٍ ﷺ (٣٠٤٧) .

تُراها نزلت هذه الآيات - حتى لو لم تكن هذه الآيات إلا في القَصَص والوعظ والوعد والوعيد- تُراها نزلت للسمر؟ تُراها نزلت للتسلية؟ أو أن ذلك كله كما قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩]، فأين أنت إذًا من هذا المعنى المهم حال قراءتك؟

ولا يتمكن المرء من ذلك إِلَّا أن يُقدِّم حالة من الأحوال المهمة العظيمة التي ينبغي أن يتحلَّى بها قلب المؤمن حال قراءة القرآن الكريم، وهي التي يسمِّيها العلماء «**تعظيم المتكلم**».

فإنَّ تَالِي القرآن لا بُدَّ حين يبدأ في تلاوة القرآن أنْ يَسْتشعِر عظمةَ المتكلِّم، وأنْ يَعْلَم الخطر في تلاوة القرآن، فكما يقول العلماء: أنه ليس كلُّ يدٍ تَصْلُح لِمَسِّ جلد القرآن الكريم كما ذكر الرب جل وعلا: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٩]؛ المس فقط!! فليس كلُّ لسانٍ كذلك متأهِّلًا لتلاوته، وليس كل قلب مستعدًّا لمعانِيه، بل ذلك كلُّه متعلِّق بأن يكون هذا اللسان وهذا القلب على هذه الطهارة، والتوقير، والتعظيم لله - تبارك وتعالى - الذي به يكون القرآن سببًا في ما يتنزل عليه من المعاني، وسببًا في فتح الله له، وسببًا في نور الله له ﷻ.

فإذا لم يكنِ القلبُ على التوقير، والاحترام، والإعزاز، والإجلال لِمَا يُقْبِل عليه من كلام الله تبارك وتعالى، كذلك لا يُحَصِّل به هذه الأنوار إذا لم يكن له مُعَظِّمًا... مُوَقِّرًا... مُجِلًّا بقَلْبِه... مُتَطَهِّرًا من كلِّ رِجْسٍ، ومن كل خطيئة.

وإنما يَحُول هذا الرَّان - الذي علا على القلب - بين هذه الأنوار من كلام الله تعالى، وبين القلب؛ فإن القلب كالمرآة، إذا عُلِّق على هذه المرآة تلك الأوساخُ والأَدْرَانُ تتمنعُ الرؤيةُ فيها، كذلك لا يصل نور القرآن إليه إلا بعد أن يُزِيل ذلك كلَّه؛ لِتَظْهَر تلك الصُّوَر جَلِيَّةً في مرآة القلب، حتى يتميز له هذا النور، وهذا الحق، ويتميز له هذا الشفاء، وهذه البركة، إلى آخره.

فعندما تتلو كلام الله تعالى فإنما ينبغي عليك أن تستحضر عَظَمَة من يكلمك جل وعلا، أو شيئًا من تلك العظمة، وأن تعلم أن الكلام الذي تتلوه ليس من كلام البشر، وإنما هو كلام الرب -جل وعلا- الذي يجب عليك أن تُعَظِّمَهُ التعظيم اللائق به، قال سبحانه وتعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح:١٣].

وكلما زاد تعظيمُكَ لربك ﷻ وإجلالُك لكلامه، كان ذلك سببًا لبَرَدِّ اليقين على قلبك، وسببَ ورود النورِ عليه، وسببًا لإقبالك على الله تعالى، وسببًا لمحبةِ الله لكَ، وإنزالِه رحمتَه عليكَ جل وعلا، واخْتِصاصِكَ من دون الخلق بأنك المُعَظِّمُ له المُجِلُّ له؛ فإذا كان ذلك متحَقِّقًا فيكَ، إذا بالله تبارك وتعالى - كما أنكَ عَظَّمْتَه ووَقَّرْتَه وأقبلتَ عليه الإقبالَ اللائق به- إذا به يُنَزِّل عليكَ ما هو لائقٌ بأمثال هؤلاء المعظِّمينَ له، المُجِلِّين له ﷻ،

أن يُعَظِّمَهُ كما يعظمه أولوا الألباب؛ لعلهم يتفكرون كما قال المولى سبحانه وتعالى عنهم.

وأمَّا عن كيفية تعظيمه: فقد رأينا سلف هذه الأمة وقدوتهم النبي ﷺ وأصحابه ﵃ كيف كانوا يُعَظِّمون كلام الله تعالى.

وتعظيم كلام الله تعالى يأتي من تَفكُّرِكَ في عظمة الخالق سبحانه وتعالى، فإذا ما نظرت إلى خَلْقِه: العرش والكرسي والسماوات والأرض والجبال والنَّاس، وما في الظاهر والباطن والبحار والخَلْق، وغير ذلك عَلِمْتَ تلك العظمة، أو شيئًا من عظمة الله تعالى. فكل ذلك بيده ، وكل ذلك تحت قدرته، وكل ذلك نافذ فيه أمره سبحانه وتعالى ، لا تخرج ذرة من تلك الذَّرات من تحت حُكمه سبحانه وتعالى ، كل دابة آخذ بناصيتها، لا يُرَتِّب في الخلق إلا هو سبحانه وتعالى، ولا يُحييهم ، ولا يُميتهم ، ولا يَزيدهم ، ولا ينقصهم ولا يَجْمعهم إلا الله تبارك وتعالى.

وانظر إلى معنًى مهم من معاني عظمته جل وعلا أن يقول: «**هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي، وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَلَا أُبَالِي**» (1) .وتأمّل هذا الحديث القدسي الشريف: كلُّ الخَلْق في قبضته ﷻ مُتَرَدِّدون بين رحمته وفَضْلِه، بين عَدْله ونِقْمَته جل وعلا.إذا عَلِمتَ أن هذا كلَّه في قبضته؛ وأنه مُتَرَدِّدٌ بين ذلك وذلك، وعَلِمْتَ أنه ﷻ يفعل ما يشاء وكما قال: ﴿ **فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ** ﴾ [البروج: ١٦]، اطَّلَعْتَ على شيء من عظمته، ويستشعر قلبك حينئذ تلك العظمة، أو شيئًا منها، فَتُعَظِّم كلامه سبحانه وتعالى، ويرتفع في قلبك هذا التعظيم، وهذا التوقير، وهذا الإجلال لله تعالى، فيكون ذلك مُساعِدًا لك على معاني التفهم التي أشرنا إليها.

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤ / ١٦٨)، وابن حبان في صحيحه (٢ / ٥٠)، والحاكم في المستدرك (١ / ٨٥) وصححه ووافقه الذهبي .

أن تتفهم من كل آية ما فيها من أسماء الله تعالى وصفاته، وما فيها من حِكَمِه وأفعاله، وأحوال الأنبياء، وأحوال المكذبين، وأحوال الجنة والنَّار والبَعْثِ والنُّشُور..

وكل ذلك موجود في كلام الله تعالى، أين نصيبك وحظك من التفهم عنه سبحانه وتعالى ؟

أين نصيبك وحظك من تدبره والإقبال عليه الذي أمرك به سبحانه وتعالى ؟!

فيه أسماؤه وصفاته، وهي البحر العميق الذي به عَلَّمَكَ الله تعالى الإقبال عليه، أن تعرف منه أنه المَلِك؛ أن له مملكةً له فيها التصرف والتدبير، والأمر، والنهي، والإعطاء، والمنع، وأن تنظر في أنه الملك القدوس السلام المؤمن، وأن تعرف آثار هذه الأسماء، وتلك الصفات في خلقه، وأن الخلق كله إنما هو أثر من آثار تلك الأسماء، أو من بعض هذه الأسماء والصفات التي ذكرها الله تبارك وتعالى، فهو الخالق، فالخلق أثر من آثار هذه الصفة، وهو الرازق فالرزق أثر من آثار هذه الصفة، وهو الملك فتلك المملكة أثر من آثار اسمه الملك، وهو السلام، وهو المؤمن، وهو القوي، وهو الغني سبحانه وتعالى، وهو الغفار، وهو الوهاب، وهو البَرُّ، وهو الرحيم، كل ما في الكون آثار من آثار أسمائه وصفاته التي ينبغي أن تُوَحِّدَهُ بها، وأن تدعوه بها [1]، وأن تُثْنِيَ عليه بها، وأن تتعلق به سبحانه وتعالى فيها؛ ليكون لك حظٌ

(١) قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

منها، ليكون لك إقبال عليه بها، فتنقلب حالك إلى تلك الحال: حال المتعلقين بربهم ... الفاهمين عن ربِّهم ... المُوَحِّدين لربهم ... المحبين لربهم ... المتقربين لربهم . أولئك الذين يرفع الله درجتهم ويُعْلي منزلتهم، ويأخذ بأيديهم، ويحفظهم، ويُوَفِّقهم ويسددهم.

وكذلك: أن تتفهم مِن خَلْقِه وفِعْلِه ما يليق بكل آية منها، ذكر أهل العلم في هذا السياق بالذات قوله سبحانه وتعالى:

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الواقعة:٥٨، ٥٩]، ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ [الواقعة:٦٣] ، ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴾ [الواقعة:٦٨]، ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴾ [الواقعة:٧١] .

ولهذه الآيات تلك المعاني التي ينبغي أن تتفهمها ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ تُراه يَقْصد ﴿ مَّا تُمْنُونَ ﴾: هذا المنيّ الذي يكون سببَ الولد وانتهت هذه المسألة عند هذا المعنى؟ لا؛ لأن هذا الفهم يشترك فيه المؤمن والكافر..

أما المؤمن الذي يتفهم عن الله تعالى، فإنما يبلغه من الآية شيءٌ يكون سببًا لفهم عظمة الله تعالى وقدرته وقوته، وسببًا ليقربه إلى الله تعالى، وليكون قائدًا له إلى معرفته ... إلى محبته ... إلى توحيده ... إلى معرفة شيء من عظمته سبحانه وتعالى. فهذا السائل الذي ذكر الله تبارك وتعالى- هذا الماء المَهين الذي أشار إليه في قوله جل وعلا ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ [السجدة:٨]- انظر إليه وقد خرج إلى

أعصاب وعظام ، ثم خرج بعد ذلك إلى السمع والبصر والفؤاد، ثم خرج إلى هذا الإنسان السَّوي، ثم تركبتْ فيه الصفاتُ الشريفة والصفات الرديئة من الحقد والغلِّ، والحسد، وحب الدنيا، والشهوات، كل ذلك في هذه الآية ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾.

هذا الخلق الذي تراه بعد هذا الأمر هو الذي خلقه الله تعالى ليُنَبِئك، وليرشدك، وليأخذ بيدك إلى معنى الخَلْقِ، والقُدْرةِ، والإبداع، وإلى عظمة الخالق سبحانه؛ حتى تقول سبحان الله!

وأما أحوال الأنبياء، وما ينبغي أن تتفهم منه، فقد رأيت أحوال الأنبياء ، ودعوتهم وصبرهم، ومواصلتهم ومثابرتهم، وكيف كذبهم النَّاس. فلك في ذلك أن تتفهم أولاً كيف أنَّ الله تعالى مُستغنٍ عن الرَّسُول والمُرسَل إليه، مُستغنٍ عن الخلق جميعًا سبحانه وتعالى. وما أرسَل الرُّسُل ليُعَذَّبوا وليُؤذوا وليقع لهم ما حدث، وإنما أرسلهم ليعتبر المعتبرون بعدَهم بصبرهم وثباتهم على دعوتهم، وأن الله تعالى أَيَّدَهم ونصرهم في نهاية المطاف، مع ما بيَّنَ سبحانه وتعالى من قوة تحمُّلِهم وسعة صدرهم وطول دعوتهم وأمدهم؛ آمن بهم النَّاس أمْ لمْ يؤمنوا كما ذكر الله تبارك وتعالى عنهم، وكيف كانت دعوتهم إلى توحيده، وإلى نبذ عِبادة غيره سبحانه وتعالى، وأنهم لم تَلِن لهم قناة، ولم تضعف لهم عزيمة، ولم يَهِن لهم قلبٌ - صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين - حتى لاقَوا الله سبحانه وتعالى.

لك في ذلك التفهم الذي ينبغي أن يكون الدافع لك، والقوة المُحَرِّكة لقلبك، والصبر الذي يحيط بدعوتك وعملك، والثبات والقوة، وقوة الإرادة. وقوة العزيمة، ومواصلة السير إلى الله تعالى، وفي نفس الوقت انتظار نصر الله جل وعلا.

وهذه أحوال المكذبين: تتفهم منها كذلك ما بَيَّن الله تعالى:

أنَّ المكذبين عاقبتهم كعاقبة ما حدث لقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم فرعون. كل أولئك لم يُعْجِزوا اللهَ تعالى شيئًا. وأنهم مهما عَلَوْ واستكبروا وطال أمدهم وزادت قوتهم وارتفعت دولتهم، إذا ما كذَّبوا ربهم وخالفوا رُسُلهم، وإذا ما بغوا وطغوا وظلموا فإن نهايتهم هي النهاية التي ذكر الله تعالى: ﴿ **فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا** ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وإنها بَيَّن ذلك؛ ليكون صبرًا للمؤمنين، وشفاءً لقلوبهم، وانتظارًا لفرج ربهم بعد ثباتهم على دعوتهم، وانتظارهم لنصر ربهم، وعدم يأسهم وقنوطهم. وأنه مهما طال ظلام أيامهم وسواد ليلهم فلابد أن يَنْشَقَّ ذلك الفجر من نصرة الله تعالى لهم، وأن يُزيلَ -سبحانه وتعالى- دولة الكفر التي جثمت على دنيا المؤمنين اليوم.

وذِكْرُ الجنة والنار، والصراط، والبعث، والقبر، والهول، والنشر، كل ذلك تتفهم منه ما يكون سببًا لعبرتك، وسببًا لخوفك، وسببًا لإقبالك على الله تعالى، وسببًا لتوبتك، ومحاسبة نفسك في اللحظات والأنفاس لِتَعُدَّ عليها ما يكون سببًا لنجاتك من النار، ودخولك الجنة، وفوزك بِقُرْب الرب سبحانه وتعالى ورضوانه جل وعلا. وهذه المعاني ملئ بها القرآن الكريم، ولكنْ يَمُرُّ عليها المؤمنون اليوم كما

قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف:١٠٥]..

هكذا تَتفهَّم، وهذا رِزْقُ الله تعالى الذي يرزقه الموفَّقِين من عباده، لا يَطَّلِع على هذه المعاني إلا مَن وفقهم ﷻ لها. وإنما يَطْمع المرء في أن يوفِّقه ربُّه لفَهمٍ ما، أمّا أن يُحيط المرءُ بكل آية، أو بكل سورة، أو بكل معنى؛ فهذا ما لا يُدركه أحدٌ، ولا يحيط به أحد إلا الله جل وعلا، أو ما أَطْلَع عليه رسولَه ﷺ. قال المولَى تبارك تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩].

قد كان همُّك إذًا في هذه المعاني أن تتفهم هذه الآيات، وألا تَـمُـرُّ عليها مرورَ الغافلين، وأنَ تَسْتَبْصِر منها ما يكون سببَ فَهْمِك عن الله تعالى الذي يقودك لمحبته، والذي يدل على توفيقه إياك ﷻ، والذي يحملك بعد ذلك على التقرب إليه بأنواع القُرَب، وعلى محبة كلامه، وإدمانه، وعلى الإقبال عليه بالذِّكر والفكر ﷻ؛ حتى تنطلق من قيود المعاصي والشهوات التي أنتَ فيها.

وذلك التفهم هو ما ينبغي أن يكون عليه حال المؤمنين اليوم، أو حُزْنًا على ترك هذه الحال، أو تَفَكُّرًا فيه ومجاهدة على إصلاح ذلك الحال..

المعنى الرابع : التخصيص :

هو أن تعلم أن كلام الله -جل وعلا- أنت المخصوص به وأنه يخاطبك أنت بهذا الكلام، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

[الأنبياء:١٠]. يعني: هذا الكتاب فيه ذِكْرُك؛ أن تَنْظُر فيه فترى فيه ذِكْرَ نَفْسِك؛ أنْ تَرَى نَفْسَكَ فيه من المتقين، من العصاة، من الفجار. أن ترى نفسك فيه من المؤمنين، من المحسنين. أن ترى نفسك فيه من الصابرين، الصادقين. أن ترى نفسك فيه من الخاشعين، المخبِتين. أن ترى نفسك فيه من المقَصِّرين، الغافلين، أن ترى نفسك كذلك تنتظر رحمة الله تعالى، أو أنك تنتظر عذابه، أو أنك مُقبِل عليه، أو مبتعد عنه.

لذلك لَمَّا يقرأ المرءُ آيات الله تعالى لا بُدَّ أن يَعْلَم أنه المقصود بها، وأن الله تعالى مُقْبلًا عليه، وأن الله تعالى يُكلّمه هو وحدَه بهذه الآيات، ويأمره بهذه الأوامر، وينهاه عن هذه النواهي، ويَعِدُه بهذه الوعود الجميلة، ويتوعده بهذه الوعود المهَدِّدة.

قال تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: من الآية١٩]، فكُلُّ مَن بَلَغَه ذلك القرآن فكأنما كلمه الله تبارك وتعالى، لذلك يشكر المؤمنون اللهَ تعالى على أنْ أنزل عليهم هذا الكتابَ والحكمة ليأخذهم به، وليعلِّمَهم إيّاه، قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾[البقرة: من الآية٢٣١].

فهذا الكتاب: ﴿ بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

وهذا الكتاب: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩].

وهذا الكتاب كما قال: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ [النحل: من الآية٨٩].

وهذا الكتاب: ﴿ وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: من الآية٨٩].

فإذا لم يَرَ المرءُ فيه الهدايةَ، والبشرى، والرحمةَ، والهُدى، والموعظةَ فكأنه لم يَخُص نفسَه بهذه الآيات، فلا تَمُرُّ آية إذًا إلا وأنتَ تَنْظرُ بها كَلَّمك اللهُ وخاطَبك، وبما أَمَرك، وعمَّا نهاك، وبما قَصَّ عليك، وبما أَخْرج لك من الموعظة، وبما ذَكَر لك ذِكْرَك الذي ينبغي أن تأخذ منه ما يكون سببًا لِنُزول رحمةِ الله عليك.

فمثلا يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ﴾ [آل عمران:١٣٣] فأنت مُطالَب بها ..وهي لك.

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء:٢٣]، أنت مُطالَب بها.. وهي لك.

﴿ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ [الإسراء:٣٥]، ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [البقرة:٤٣]، أنت مطالب بذلك كله، ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٩] ، كل تلك الآيات أنت مُخَصَّص بها.

عَلِمَ الصحابةُ أنَّهم هم المخصوصون بهذه الآيات، فتنافسوا فيها. لما قال: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ﴾ [آل عمران:١٣٣] علموا أنهم هم المخصوصون بذلك المطالبون به، فسارعوا إلى هذه الأوامر ونفذوها.

واعلم: أن كلام الله تعالى إنما يحتوي على أوامر ونواهي وقَصَص. حتى هذا القصص أنت مأمور بالاعتبار به، وأنه مُتَوَجِّه إليك بالعظة والتذكر..

كلّ ذلك أنت مُطالَب به، وأنت غافل عنه، وأنت مُقصِّر فيه، مع أنه مادة حياتك، ومادة رحمتك، ومادة هدايتك. وفي نفس الوقت أنت مسئول عنه عند الله تعالى: أنت تتلو كلام الله جل وعلا ولا تنفذه.. كهذا العبد السيئ الذي أتاه كتاب ملكه أن يفعل كذا وكذا، وكذا، وأن يهيئ كذا وكذا، وكذا، وأن يُرَتِّب كذا وكذا، وكذا، فأخذ كتاب الملك؛ يقرأه ويتلوه ويُغْلِقَه ... يقرأه ويتلوه ويغلقه ... ولم يفعل من ذلك شيئًا!

تُراه أحق بالمَقَتِ، وتراه أحق بالغضب، وتراه أحق بالتنكيل والتعذيب، أم لا؟

ينبغي أن يعلم المؤمنون أنهم هم المخصوصون المطالبون بهذه الآيات. فما من آية فيها أمر، ونهي، وزجر، وتوحيد، ووعد، ووعيد وكل ذلك إلا وهي مُتَوَجِّهة إليك بالخطاب، إلا وهي تُخَصِّصُك بالقول، إلا والله تعالى يقول لك فيها ذلك، وينبئك بما فيها سبحانه وتعالى..

حتى ذلك القصص الذي ذكر الله -جل وعلا- قال فيه:

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود:١٢٠]، يَقُصُّ هذا القصص على النبي ﷺ؛ ليثبت به فؤاده..

أنت مخصوص بذلك كذلك، بأن يكون ذلك القصص مثبتًا لفؤادك، رابطًا على قلبك، تنتظر به نصر ربك سبحانه وتعالى، ولك حظ فيه. وانظر إلى هذه الأوامر والنواهي والزواجر والوعد والوعيد في تلك الآيات التي تقرأها وأنت عنها غافل!

والتي يُحَدِّثك فيها وأنت ملتفت عنه! والتي يأمرك بها أو ينهاك عنها وأنت تتلوها وتغلقها!

تراك ماذا تنتظر إذا كان تخصيص ربك بكلامه لك، وأنت لا تُخَصِّص نفسك به ولا تستدعي بذلك شيئًا من نفسك ؟

المعنى الخامس : التأثر :

ومما يجب أن يَتَّصف به المرء حال قراءة القرآن أن يكون متأثرًا بكل آية بما يليق بها من حال ، سواءً كانت في الرجاء أم في الخوف أم في الحزن، لأن آيات القرآن لابد أن يُنَزِّلها المرء في كل حال على قلبه. فآيات التخويف والوعيد والآخرة والقيامة والأهوال لابد أن تعتري القلب حالة من حالات الخوف بتلاوتها، وإذا كانت هذه الآيات تتكلم في الرجاء، والجنة، وفي العمل الصالح، ورضا الله تعالى ومسامحته وتجاوزه يَغْلِبُ على قلبه الرجاء.

وإذا كانت الآيات تُبَيِّنُ مقامات الصالحين، وأعمال أولئك المتقين، رأى المرء نفسه بعين التقصير والتفريط، فيغلب حال الحزن على قلبه.

وهكذا لابد وأن تكون تلك الأحوال ملازمة للقلب، وإذا استمرت هذه الأحوال غلبت الخشية على قلب المرء؛ لمعرفته عن ربه، ولفهمه عنه كما قال: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:٢٨].

لذلك ينبغي أن تكون الخشية هي الملازمة لقلب المؤمن؛ لأن آيات التخويف كثيرة، وحتى آيات الرجاء أيضًا إذا أمعنت النظر فيها وجدتها آيات مخيفة.

انظر إلى تلك الآيات التي ظاهرها الرجاء ،وباطنها التخويف الشديد حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه:٨٢]، فإذا استبشرتَ بأنه غفار وجدت أن الطريق إلى المغفرة والأسباب التي عَلَّق الله تعالى عليها المغفرة من الصعوبة بمكان، فيغلب على قلبك الحزن خوفا من ألا أن تتصف بها أو لا تقوم بتحقيقها، فيكون الخوف كذلك حتى في آيات الرجاء غالبًا على قلب المرء؛ حتى ينشرح بعد ذلك برحمة الله، ويلِين جلدُه وقلبُه إلى ذكر الله -سبحانه وتعالى- كما هو حال المؤمنين الذي أشرنا إليه.

وهذا التأثر ينبغي أن نراه على أحوال المؤمنين. أمَّا أن يتأثروا قليلًا بالموعظة، وهي الحالة التي نحن فيها، ثم يخرجوا لتنتهي تلك الحال، ويعود المؤمن إلى ضحكه ولهوه، وإلى كلامه، وإلى غفلته، وإلى معافسته أهله وولده، وإلى انشغاله بدنياه، وشغله، وماله فليس ذلك خوفًا محمودًا. وإنما الخوف المحمود هو الخوف الملازم للقلب الذي يمنع المرء من الوقوع في المعصية، والذي يحمل المرء على الطاعة، ويسارع به إلى رضا الله تعالى، وألا يراه حيث نهاه، وألا يفتقده حيث أمره، وأن يكون متوجسًا ليومه وغده، مُتَرَقِّبًا لرحيله، وسرعة الانتقال إلى الله تعالى.

هذا الحال الذي ينبغي أن يكون حال المؤمنين اليوم، فإذا ما قرأ تلك الآيات التي ظاهرها الرجاء، وباطنها التخويف خاف حتى كاد أن يَنْمَحِقَ من الخوف، وإذا قرأ آيات الجنة استبشر وطار بها فرحًا، وإذا قرأ الآيات المتعلقة بربه وأسمائه وصفاته

سبحانه وتعالى إذا به يحني لله تعالى جبهته خشوعًا .. وإجلالا .. وتعظيمًا .. وإقبالا .. وتعلُّقًا .. ورجاءً في الله تعالى .. وثقةً فيه .. وتوكلا عليه سبحانه وتعالى، فكلما مرَّت عليه آية تغير حاله بما يناسبها.

أمَّا حال الغفلة التي نحن فيها فلا يُرجى من وراءها شيء، لذلك قيل في هذه المعاني: لابد أن يتحقق بها أو ينوي ذلك وإلا كان حاكيًا فقط تلك المعاني. يعني: لابد أن يُشْرَبُها قلبه، وأن تظهر على حاله، وتصرفاته، وأخلاقه وإلا لم يكن قارئًا للقرآن الكريم، وإنما يحكي هذه الأقوال التي يسمعها، فإذا قرأ قوله سبحانه وتعالى في مثل هذه الحال: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة:٤]. لابد أن يغلب على قلبه حال "التوكل والإنابة والفهم" عن الله تعالى. وإذا قرأ ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأنعام:١٥]. فلابد أن يغلب على قلبه الحال المتعلق بهذه الآية الكريمة من خوف العصيان وعظم العذاب، وسرعة الإقلاع عن الذنب والندم عليه والخوف من عاقبته ، أو أن ينوي ذلك. وإلا كان حاكيًا مرددًا بلا فهم، وخارجًا عن تدبر الآيات الذي أمر الله تعالى به في قوله ﷻ: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠].

وكذلك إذا ما قرأ قوله تعالى: ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ ﴾[إبراهيم:١٢].

فلابد أن يتصف بهذا المعنى، أو أن ينوي أن يتصف به، أمَّا أن يقول: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ويخرج إلى المعصية والغفلة، ويخرج إلى البعد عن الله تبارك وتعالى! فهذا ليس حال المؤمنين.

تراك تقرأ القرآن متأثرًا به، فاهمًا عن الله تعالى، قد تَوَجَّه الخطاب إليك، أم أن هذا الخطاب مُتَوَجِّهٌ إلى غيرك؟

وهذه حال العبيد العصاة الذينَ ذكرنا : أنه قد جاءهم كتاب الملك فأخذوا الكتاب، وفيه أن يفعلوا كذا وكذا، وأن يتصفوا بكذا وكذا، وأن يحققوا كذا وكذا، وأن يقوموا بكذا وكذا، وهم يقرؤون الكتاب ويغلقونه وينامون، ثم يصبحون فيقرؤون الكتاب، ويغلقونه مرة أخرى!

لذلك: لا يكون تاليًا، بل يكون مرددًا .. حاكيًا، بعيدًا عن حاله، بعيدًا عن قلبه، بعيدًا عما يطلبه منه ربه، بعيدًا عن تدبره ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩].

فلا يَنْزِل القرآنُ على قلبهم نزولَ الموعظة والشفاء ، وهذه هي الحالة السيئة التي لابد أن يعالجها المرء هذه الأيام، لتكون طريقَه ليُحقق في شهر "رمضان" - شهر القرآن - هذه المغفرةَ التي فتحها الله تعالى له، والرحمةَ التي يُنَزِّلها على عباده الصالحين.

فلابد حينئذ أن تتغير تلك الأحوال التي نحن فيها؛ حتى يُغَيِّر الله تعالى ما نحن فيه من أحوال البُعْد والجفاء والحرمان التي أصابتنا بسبب بُعْدِنا عن القرآن، وبسبب عدم التدبر له والإقبال عليه، ولابد أن يعطيه المرء قلبه، وذهنه وعقله وحضوره ليكون سببًا لرحمته.

انظر كم فرَّطنا في هذه المعاني! لابد إذن أن يكون ذلك هَمَّ المرء اليوم وغداً حتى تصلح به أحواله، ويُقبِلَ بِهِ على ربه، ويُشْفَى من أمراضه وعلله؛ ليكون بذلك أهلًا لقُرْبه من الله تعالى.

وقد كان السلف الصالحون كما أمرهم النبي ﷺ يُقْبلون على هذا الكتاب، فقد أمر النبي ﷺ عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أن يختم القرآن في سبع، وهي الحال الوسط التي ينبغي ألا ينزل عنها المرء إلا لحالات أخرى تعتريه.

فما الذي يجعلك ويَحْمِلُكَ على أن تُفَرِّط في القرآن؟

لو استفدت من وقتك الضائع الذي تُضَيِّعَهُ في الأكل والشرب والكلام، والاستئناس بخَلْقِ الله تعالى وغير ذلك، لو استغللتَ هذا الوقت، أو لو اهتممت بأن يكون هذا الوقت لكلام الله تعالى لتغيرت تلك الحال، ولنزلت تلك البركة في وقتك الذي تشكو من قلته، وأنك لا تجد وقتًا للقراءة، ولا للذكر، ولا للصلاة، وأنك لا تجد وقتًا لتحقق به أعمال معاشِك، ولا جلوسك مع أهلك، ولا غير ذلك..، كل هذه الأحوال إنما صلاحها في ذلك.

ابدأْ .. وجَرِّبْ مع نفسك لا مع الله ﷻ - إذ لا تجربة معه ﷻ- فكلامه صادقٌ لا خُلْفَ له.

انْكَبَّ على كلام الله تعالى، وأقبلْ عليه، وتأدَّبْ بأدبه، وانظر البركة التي سَتَحُلُّ عليك، وعلى بيتك وأهلك وولدك، وتَحُلُّ على صحتك ومالك ونفسك، وعلى أخلاقك وعملك وعبادتك، وكيف يَصْلُح قلبُك، ويزداد خشوعك وتتحسن

أحوالك، وإذا بك متأثرًا خاشعًا، إذا بك مقبلًا متوكلًا حسن الهيئة، قد نوَّر الله تعالى وجهك بما نوَّر به قلبك، إلى آخر المعاني التي قد سمعنا عنها في السلف الصالحين، والتي مازال طريقها مفتوحًا للمؤمنين اليوم.

أَمَرَهُ أن يختم القرآن في كل سبع: فكان الصحابة يُحَزِّبون كتاب الله تعالى على الأسبوع؛ ليختموا هذه الختمات، فمنهم من يزيد إلى ختمتين في الأسبوع، ومنهم من يَقِلُّ عن ذلك لِأسباب: منها نشر العلم، أو طول التدبر في آيات الله لاستخراج تلك المعاني والأحكام، أو الإقبال عليها. فمنهم من كان يقرأ الآية الواحدة ليْلَه كلَّه يُردِّدها : ﴿ **أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ** ﴾ [الجاثية: ٢١] ، إلى آخر ما ورد عن النبي ﷺ، وعن كثيرٍ من أصحابه ﷺ، والسلفِ الصالحين أنهم كانوا يقفون عند الآية الواحدة طُوَال ليلهم يقرأونها كما سبق وأن أشرنا.

وهكذا لا ينبغي لك أن تكون من الزاهدين في كلامه، الزاهدين في كتابه جلَّ وعلا.

القرآن الكريم بين المحبة والإصلاح، وبين الهَجْر وموانع الانتفاع به .

إنَّ أهمَّ ما يُصلِح المرءَ والذي يجب أن يُقبل عليه أشدَّ الإقبال هو القرآن الكريم؛ فإذا أحب القرآنَ وأقبل عليه وأَدْمَن قراءَته ، وحاول أن يتدبَّر معانيَه ، يوشك ذلك أن يكون سببًا لِأَنْ يَنتقل من هذه الحالة السيئة التي هو فيها.

وإِنَّ أَدَلَّ الأدلة على محبة الله والإقبال عليه هو محبَّة القرآن الكريم، والإقبالُ عليه، وعدمُ الملَلِ منه، بل أن يكون زادَهُ، وأن يكون فِكْرَهُ، وتدبُّرَه، وتأمُّلَه، وإقبالَه، وجلوسَه، ونومَه، وحركتَه، وسكونَه، وأن يكون القرآن قائدَهُ في ذلك كلِّه، فإذا بالمرء حينئذ مُحِبٌّ لربِّه، مقبلٌ عليه، وبقَدْرِ ما يحب المرءُ ربَّه ﷻ بقَدْرِ ما يحبُّه ربُّه، فإذا أراد المرء أن يعرف منزلتَه عند الله، فليعرف منزلةَ الله تعالى عنده.

فهذه المنزلة إذن ينبغي أن تظهر في القرآن الكريم، لذلك وجدنا الصحابة رضوان الله تعالى عليهم - بعدَ النبي ﷺ تَعَلُّمًا منه صلوات الله وسلامه عليه - لا يُزيلُهم شيءٌ عن القرآن قيامًا وتلاوةً وذكرًا وتعلُّمًا وتعليمًا وفَهمًا كما أمرهم بذلك النبي ﷺ، فكان القرآن الكريم بَرَكتَهم، وهدايتَهم، ونورَهم، ورحمتَهم، وشفائَهم، واستخرج كافة ما كان فيهم من عِلَل، انتقلوا به من الجاهلية إلى الإسلام؛ فإذا بهم بهذا القرآن الكريم قد تَطَهَّروا من ذلك كله.

وحتى يَتحقَّق للمرء فتحُ الله في القرآن الكريم بِأَنْ يكون القرآنُ سببَ كل سُرورِه ونعيمِه في الدنيا والآخرة فلابد من أن يتَحَقَّق فيه أَمْرَانِ:

- **محبة القرآن الكريم.**
- **تعظيم القرآن الكريم.**

وقد ذكرناهما، وأَنْ يَخْرُجَ عَنْ أَمْرَينِ:

- هجر القرآن.
- موانع الانتفاع بالقرآن الكريم، والتي نسميها: موانع الوصول إلى أنوار وبركات وشفاء القرآن.

ونتكلم الآن عن الأمور التي ينبغي على المرء أن يخرج منها، وأن ينتهي عنها ويجانبها؛ لأنَّ النفس بَداهةً لن تُقْبل على القرآن وتحبَّه وتُعظِّمه وتُقدِّره حقَّ قَدْرِه، حتى تَنْخَلِعَ عن هذا الهجر، عن هذا التقصير في حقِّه.

أولا: هَجْر القرآن:

قد ذكرنا إنَّ هجرَ القرآن الكريم وعدمَ الانتفاع به مِمَّا شَكَاهُ النبي ﷺ إلى ربِّه؛ أنَّ قومَه هجروا هذا القرآن، فقال الله تعالى حاكيًا عن رسوله: ﴿ **وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا** ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفرقان: ٣٠].

وهَجْرُ القرآن خمسةُ أنواع:

أولًا: هجر سماعه، والإيمان به، والإصغاء إليه.

ثانيًا: هجر العمل به، والوقوف عند حلالِه وحرامِه، وإنْ قرأَهُ وآمَن به.

ثالثًا: هجر تَحْكِيمه، والتحاكم إليه في أصول الدِّين وفروعه.

رابعًا: هجر تدبُّرِه وتَفَهُّمه، ومعرفة ما أراد المتكلِّم به.

خامسًا: هجر الاستشفاء به والتداوي به من جميع أمراض القلوب[1].

لذلك وَجْدنا الصحابة ﷺ خرجوا عن هذا الهَجْر كله؛ فإذا بهم يُقْبِلون عليه سماعًا وتعلمًا وعملا وتحاكما وتفهماً واستشفاء وتداوياً، حتى رأينا النبيّ ﷺ -كذلك- يحب أن يسمع القرآن من غيره، ويتأثر به، يقول لابن مسعود ﷺ كما في الصحيحين: « « اقْرَأْ عَلَيَّ». قُلْتُ: آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟! قَالَ: «فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ

(١) انظر كلام شيخ الإسلام ابن القيم في " الفوائد " ص٨٢.

غَيْرِي» . فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى بَلَغْتُ قولـه سبحانه وتعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾[النساء: ٤١] قَالَ: « أَمْسِكْ » . فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ!)). وفي رواية: «إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»[١].

فهذا الأمر؛ وهو هَجْر السماع ، وهجر العمل ، وهجر التدبُّر والفَهْم ، وهجر التَّحاكُم والتَّحْكِيم ، وهَجْر الاستشفاء به؛ كلُّ ذلك ينبغي أن يخرج منه المرءُ اليوم ، ليكون ذلك مَدْعَاةً لِأَنْ يكون المرء مُقْبِلًا على القرآن، فالإنسانُ ما أن يترك الهجرَ ويُقبل على كلام الله ﷺ إلا كان غذائَه ، وشفائَه ، ورُوحَه ، ويُضيء طريقَه إلى الله.

وأصحابُ القرآن كما يقول فيهم الرسول ﷺ: « أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ»[٢]، وهؤلاء هم المتميزون[٣] الذي ينبغي أن يكون كلُّ واحد منا على حالهم ليَدخل في زُمْرة أهل الله تعالى وخاصَّتِه . فينبغي حينئذٍ أن يكون المرءُ مسارعًا إلى ذلك لا متكاسلًا عنه.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٨٢) والفظ له، ومسلم بنحوه (٨٠٠) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٢٧) ، و ابن ماجه (٢١٥) من حديث أنس بن مالك ﷺ، قال الحافظ المنذري في الترغيب (ح: ٢٢٠٩) عن إسناد ابن ماجه: إسناد صحيح.

(٣) قول النبي ﷺ : «(إن لله تعالى أهلين من الناس) قالوا ومن هم يا رسول الله قال (أهل القرآن) وأكد ذلك وزاده إيضاحا وتقريرا في النفوس بقوله (هم أهل الله وخاصته) أي الذين يختصون بخدمته، أي حفظة القرآن العاملون به هم أولياء الله المختصون به اختصاص أهل الإنسان به، سُمُّوا بذلك تعظيما لهم؛ كما يُقال: بيت الله.» انتهى بتصرف من فيض القدير ، شرح الحديثين، (٢٣٧٤، ٢٧٦٧).

ثانيًا: موانع الوصول إلى أنوار وبركات وشفاء القرآن

ومما ينبغي أن يكون عليه تالي القرآن الكريم وهو يقرأ كلام الله تعالى ليكون سبب سعادته وتدبره وفهمه، وسبب زيادة بركته وشفائه - أن يتخلَّى عن موانع الفهم، يعني: أن يتخلَّى المرء عن الموانع التي تمنعه من أن يصل كلام الله تعالى إليه، سواء كانت هذه الموانع في الإصرار على المعصية، أو الابتلاء بالكِبر، أو بالعُجْب، أو بالهوى المُطاع. فكل هذه الآفات من آفات النفس -وأَخَصُّها هذه التي ذكرنا - تمنع القلب من أن يعي عن الله تعالى، وأن يفهم عنه، وتمنع القلبَ كذلك التدبرَ والتفهمَ والحضورَ والخشوعَ، وكذلك تمنع القلب أن يُخَصِّص نفسه بهذه المعاني التي ذكرها الله تعالى، وأمرهم بها ونهاهم عنها وذكَّرهم ووعدهم وأوعدهم بها. وتمنعه أيضاً من أن تصل إليه بركات القرآن، وأن يصل إليه شفاؤه وهدايته، وأن تصل إليه رحمته، وأن يصل إليه نوره الذي ذكر الله تعالى:

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٧٤].

فهذا النور الذي إنْ أخذ المرءُ بحظه منه ظهر هذا النور في كلامه وسمعه وبصره وقلبه ويده كما دعا النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا ، وَفِي بَصَرِي نُورًا ، وَفِي سَمْعِي نُورًا ، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا ، وَعَنْ يَسَارِي نُورًا ، وَفَوْقِي نُورًا ، وَتَحْتِي نُورًا ، وَأَمَامِي نُورًا ، وَخَلْفِي نُورًا، وَاجْعَلْ لِي نُورًا**»[1] .

(١) أخرجه البخاري (٦٣١٦)،ومسلم (٦٧٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

كل هذا النور إنما هو من كلام الله ﷻ كما قال: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٧٤]. هذا النور الذي افتقده النَّاس اليوم إنما افتقدوه لتلك الآفات التي ذكرنا.

ونُفصّل فيما سبق بعض الشيء:

المانع الأول من موانع الفهم: وهو أنَّ المرء يحاول أن يكون هَمُّه الأكبر والوحيد من تلاوة كلام الله أن يُخرج الحروفَ من مخارِجها، وأن يقرأها على النحو الصحيح، ويقضي عمره في أن يحرِّك لسانه بالقرآن الكريم.

نعم. ذلك صحيح ومطلوب أن يتلو المرءُ تلاوةً صحيحةً، ولكن أن يكون هَمُّه الأكبر والوحيد هي التلاوة والمخارج، وأن يخرج هذا من هذا، وهذا من هذا؛ فهذا من تلبيس الشَّيطان حتى يُضَيِّع عليه الفَهْم والاتعاظ والتدبر، وأن يُضَيِّع عليه كذلك حضور القلب معه، وهو من أعظم تَلْبيساتِ الشَّيطان على المؤمنين الذين صاروا في هذا الطريق .

المانع الثاني من موانع الفهم: وهو أن يكون المرءُ مُتَّصِفًا بمعصيةٍ، أو موصوفًا بكِبْرٍ، أو مبتلًى بهوًى مُطاعٍ في الدنيا ، وهي المصائب والحُجُب التي يحجبها الشَّيطان على قلب المرء؛ حتى يمنعه تلك الهدايةَ وتلك الرحمة، ويمنع أنوارَ الله تعالى أن تصل إلى قلبه، حتى يمنع عنه أنوار الإيمان والأنس بالله تعالى، والشوق إليه، والتدبر في آياته، ومحبته ﷻ عن القلب بأن يحجبه بتلك المعاصي، أو الكبر، أو الهوى المتبَّع المطاع في الدنيا، فكلما أكثر المرء من المعاصي كلما نُكِتَتِ النُّكَتُ السوداء في قلبه

حتى تعلو قلبَه، وهو الرَّان الذي قال عنه المولى: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤] (١).

فلا يَطْمَع العبدُ الحريصُ على الشهوات، الوَاقِعُ في المعاصي، المُسْوَدُّ قلبُه بتلك الخطايا والذنوب أن يكون أهلًا لكلام الله تعالى، أو أهلًا لمعاني هذا القرآن الكريم، أو أن يتنزل هذا القرآن على قلبه نورًا ورحمة وهدايةً وشفاءً، لا يطمع في ذلك خاصَّةً مع الحرص في الدنيا، واتِّباع الهوى، أو خاصَّةً مع الكِبْر؛ بأن يرى نفسه أنَّه يَفْهَم، وأنه عنده كذا وكذا... وأنه به... وأنه يستطيع... وأنَّه... ، ويرى نفسه فوق الناس، والناس دونه وذلك لأن الله ابتلاه فأنعم عليه بأمرٍ من أمور الدنيا؛ من مالٍ، أو جاهٍ، أو منصِب، أو سلطانٍ، أو علم، أو عقل، أو قوةٍ، أو جسدٍ، أو غيرِ ذلك من أسباب الكِبْر التي تُرِيه نفسَه، وأنه شيء، وأنه يفعل ويفعلُ، وكيف يتكلم معه الآخرون بهذه الطريقة. كلُّ هذا المعاني من معاني الكِبْر.

هؤلاء المتكبرون قال الله تعالى فيهم: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥]. فكلما اتَّصف المرءُ بالكِبْر كان ذلك سببًا لطَبْع قلبِه؛ فلا يَفْقَهُ

---

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ؛ وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ». أخرجه الترمذي (٣٣٣٤) من حديث أبي هريرة ﷺ، وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

عن ربه شيئًا، وإنما يبقى هكذا مُعرَّضًا لسخطه وعذابه. قَالَ رَسُولُ الله ﷺ« **الْعِزُّ إِزَارُهُ وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ . فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ** »[1] .

وعلى العكس؛ قال تعالى: ﴿**أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ**﴾ [المائدة: ٥٤]. فلا يكون العبد المؤمن إلا كذلك؛ فلا يكون المؤمن إلا متواضعًا منكسراً ذليلًا لله تعالى، وكذلك منكسرا للمؤمنين.

ففي كل الأوقات ينبغي أن يتحلى المرء بالإخبات، والخشوع، والتواضع، والانكسار، والتذلل لله تعالى، والتضرع، والارتماء على بابه جل وعلا، ويُظْهر لربه الفقر، والفاقة، والحاجة، وأنه بغير ربه يَهْلِك، وأنه بغير ربه لا قيمةَ له، ولا وزن له في الدنيا ولا في الآخرة، وأن الله تعالى لو حَرَمه نعمةً مِن نِعَمِه ما كان شيئًا؛ فلو حرمه مثلا البصر، أو السمع، أو الكلام، أو المشي، أو العقل ما كان شيئًا، إلا أن يبكي إلى ربه، وأن يتضرع إليه.

والعبودية الحق: أن يَدْخل على ربه فقيرًا مَحْضًا لا يملك شيئًا، ولا يرى نفسه شيئًا، ولا مقامًا، ولا حالًا، كلما دخل المؤمنُ على ربه دخلَ عبدًا فقيرًا يَشهد ضرورتَه إلى ربه؛ يعني أن كل ذرة من ذراته محتاجةٌ وفي فقرٍ إلى الله تعالى،فإذا أوقفَ اللهُ جلّ وعلا ذرةً من ذرات ذلك العبد المسكين مَن الذي يحرِّكُها؟ لا يستطيع أحد؛

---

(١) أخرجه الإمام مسلم (٢٦٢٠) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة ﷺ مرفوعًا، والشطر الثاني من الحديث حديث قدسي، قال الإمام النووي في شرح الحديث المذكور: «قوْله ﷺ: (الْعِزّ إِزَاره ، وَالْكِبْرِيَاء رِدَاؤُهُ ، فَمَنْ يُنَازِعني عَذَّبْته) هَكَذَا هُوَ فِي جَمِيع النُّسَخ، فَالضَّمِير فِي : (إِزَاره وَرِدَاؤُهُ) يَعُود إِلَى اللَّه تَعَالَى لِلْعِلْمِ بِهِ ، وَفِيهِ مَحْذُوف تَقْدِيره : قَالَ اللَّه تَعَالَى : «وَمَنْ يُنَازِعنِي ذَلِكَ أُعَذِّبهُ» . وَمَعْنَى (يُنَازِعنِي) يَتَخَلَّق بِذَلِكَ ، فَيَصِير فِي مَعْنَى الْمُشَارِك ، وَهَذَا وَعِيد شَدِيد فِي الْكِبْر مُصَرِّح بِتَحْرِيمِهِ .»

فعلم المؤمن عندئذ أنه من أوّله إلى آخره... في ظاهره وفي باطنه فقيرٌ إلى الله، محتاجٌ إليه، متضرِّعٌ له، وأنه لولا ربه ﷻ ما اهتدى، ولا كان، ولا يمكن أن يكون.

وأما الهوى المتَّبع في الدنيا فكثيرٌ من المؤمنين اليوم إلا من رحم ربي مَن يَتَّبِع الهوى في تصرفاته، وأقواله، وأخلاقه، ومعاملاته، وسلوكه، فما كان على مِزاجِه وهواه وأحبه كان صديقًا له، مُقبِلًا عليه، فإنْ أغضبه شيءٌ، إذا به يَخرج عن حدود الشرع، ليكونَ مُتَّبِعًا للهوى، مائلًا إليه، لا يُطَبِّق الشرع على رضائه وغضبه، وعلى ما يحب ويكره، وعلى ما يقوم ويقعد!

لا ؛ المؤمن الحق غير ذلك كما قال الله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنعام:١٦٢].

فإن ابتلي المرء بشيء من تلك الموانع فهَيْهَات أن تقع في قلبه معاني آيات الله تعالى، وهيهات أن تهل عليه أنوار تلك الرحمات والبركات من الله تبارك وتعالى مع قلبٍ قد صدأ من قلة الذِّكر، وقد امتلأ من كثرة الخطايا، وقدِ ابْتُلِيَ بالهوى، وقد طُبع عليه بالكِبْر.

ينبغي إذن أن يتحسَّر المرء على مرور هذه الأيام بدون فائدة، فيمر الأسبوع في إثر الأسبوع، ولا يأخذ المرء نَفْسُه بالحزم حتى يمرَّ أسبوعه، وإذا حاسب المرء نفسه فيه لم يجد نفسه قد حَصَّل شيئًا: لا كلام الله تعالى قد ختمه كما يَخْتِم الصالحون، ولا في الإقبال عليه، ولا في التدبر، ولا أن يترقَّى به إلى الله تعالى، ولا أن تتحسَّن به أخلاقه ومعاملاته، ولا أن تزيد به طاعاتُه وقُرُباتُه، ولا أن تتخففَ به أثقالُه وأوزاره، ولا أن يَسْتَشْفِيَ به من علله وأمراضه وأوجاعه.

لذلك: كان تقصير المؤمنين في هذا المعنى من أسوء التقصير، أن يصف الله تعالى لهم الدواء، وأن يُبيِّن لهم طريق الشفاء، وأن يُنزِّل عليهم نوره ورحمته، فإذا بهم يبتعدون عنها، وإذا بهم يزهدون فيها، وإذا بهم يتقللون منها، وإذا بهم لا يأخذونها بالقوة التي أمر الله تعالى أن يأخذوا بها كتابه سبحانه وتعالى، يرون أسباب نجاتهم ورحمتهم وشفائهم وائتلافهم، وأسباب قُربهم من ربهم جل وعلا، وإذا بهم مُعرِضون عنها، غير مقبلين عليها، زاهدون فيها! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

كيف يسعد المؤمنون بكلام الله تعالى ويتنعمون بالإقبال عليه وتلاوته؟

فهؤلاء المُتخَبِّطُون المُتحَيرون قد بَيَّن الله لهم طريقهم في سلوك هذا الكتاب الكريم، وأحيا قلوبهم حتى تستطيع أن تُقْبِل على كلام الله تعالى بقوله: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا** ﴾ [الشورى:٥٢].

سمَّاه المولى سبحانه وتعالى روحًا؛ لتوقف الحياة الحقيقة عليه؛ لأن المرء بغيره يكون ضعيفًا، أو ميتًا كما قال تعالى: ﴿ **أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** ﴾ [الأنعام:١٢٢].

هذا حالهم مع القرآن كما أشرنا هو التَّصَدُّع والخشوع والتواضع، وتشقق البَّدن والقلب عند سماع هذه المواعظ، وتلك الزَّوَاجِر، وتلك الآيات من الوعد والوعيد، وأوامر الله تعالى ونواهيه، وقصص الأنبياء وحكاية المكذبين معهم، وكذلك البُكاء عند تلاوة هذه الآيات، ومن ثَمَّ **كان المؤمن الحافظ لكلام الله تعالى، الحامل لكتابه جل وعلا لابد وأن يكون متميزًا عن المؤمنين الذين لا يتميزون بذلك؛**

فيُعْرَفُ بليله إذا النَّاس نائمون، وبنهاره إذا النَّاس مُفْطِرون، وبِبُكائه إذا النَّاس يضحكون، وبصَمْتِهِ إذا النَّاس يخوضون، وبخشوعه إذا النَّاس يختالون، فهو حامل لواء الإسلام، فلا يلهو مع من يلهو، ولا يلغو مع من يلغو، ولا يسهو مع من يسهو، وإنما له حالٌ أخرى مع الله تعالى أَمْلَتْها هذه المعاني التي ذكرنا.

التحذير من التسويف في الأعمال الصالحات :

ما الذي ينتظره النَّاس وقد مضتْ أعمارُهم وفَنِي شبابُهم، وأوشكوا أن يرتحلوا. وإذا لم يرتحلوا اليوم فَهُم راحلون رغمًا عنهم غدًا أو بعد غد. وإنَّ غدا لناظره قريب. ماذا ينتظرون وكل يَوم يقول غدًا سأفعل، وبعد غدٍ سأفعل؟ مَن الذي ضُمِنَ له الغدُ أو بعد غدٍ والله تعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ ﴾ [الحشر:١٨]؟

ما أُوتِي القَلْبُ وضَعُفَ وزادت غفلتُه إلا بسبب قول المرء: «بعد أن أنتهي من كذا سأفعل، وبعد أن أرتب كذا سأفعل، وبعد أن ينقضي السفر الفلاني سأفعل، والشّغل الفلاني سأفعل، والزواج الفلاني سأفعل ... ». وكل ذلك من طول الأمل، ووسوسة الشيطان، وإضعاف القلب، وما فعل أحد شيئًا عندما يكون حاله هذا الحال. وهي حالة المؤمنين اليوم.

وإنما المؤمن يأخذ حِذره ويبادر أجله، ويسارع إلى تنفيذ مرضاة ربه سبحانه وتعالى؛ لأنه يعلم أنه يوشك أن يؤخذ اليوم أو غدًا، وأن يومه يمكن أن يكون آخر

الأيام، أو ليلته تكون آخر الليالي، وأنه يُرْحَلُ به وإن لم يَرْحل. في كل لحظة يموت شاب.. أو يموت طفل، وهو ينظر ولا يتأثر ولا يتحرك له ساكن!! [1]

(١) للمزيد من التفصيل حول هذا المعنى المهم ؛ (المبادرة إلى الخيرات) راجع السلسلة الصوتية للمؤلف، وهي تحت نفس العنوان.

الوظيفة السابعة:



التهجد وطول القيام

- قيام الليل في شعبان استعدادا لرمضان.
- من فوائد قيام الليل:
  - من أحسن القربات إلى الله تعالى.
  - مشاركة الصالحين من قبلنا في دأبهم.
  - مطردة للداء عن البدن.
  - مكفرة للسيئات.
  - يخفف قيام يوم مقداره خمسين ألف سنة.
- الترهيب من ترك قيام الليل: " لا تَكُنْ مِثلَ فلانٍ كانَ يقومُ الليلَ فترَكَ قِيامَ الليلِ "

• قيام الليل في شعبان استعدادا للقيام في رمضان

وهذا العمل الجديد الذي ينبغي أن يقوم به المرء في "شعبان" تحسُّبًا لـ"رمضان"، واستعدادًا لقوله ﷺ: «مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[1].

كل تاجر من وراء تجارته، وتجارة القرآن هي التجارة التي لا تبور كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٠ ﴾ [فاطر:٢٩:٣٠].

وهذه التجارة من القرآن الكريم تظهر في قوله ﷺ: «مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا ..»[2].

يعني: من قام بهذا القرآن الذي هو من وراء تجارة كل تاجر، من قام به إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه، وإذا لم يُعوِّد المرء نفسه في هذه الأيام على هذا القيام الطويل الذي يرجو به المغفرة، ويرجو به الرحمة، ويرجو به العتق من النار، فإن "رمضان" يأتي عليه، ويمر حتى إذا تعوَّد على طول القيام وجد "رمضان" قد انتهى. ولماذا طول القيام؟ لأن النبيﷺ قال: «أَفْضَلُ الصَّلَاةِ طُولُ الْقُنُوتِ»[3]،

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٣٧)، ومسلم (٧٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٣٧)، ومسلم (٧٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (٧٥٦) من حديث جابر رضي الله عنه.

وطول القنوت يعني أن يطيل المصلي من قيامه، وقال ﷺ: «وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»[1].

وهذا الأحاديث نُنَبِّه بها أنفسَنا وإخواننا المتكاسلين عن القيام لربهم والتلذذ بالإقبال عليه ﷻ، والمحبة لكلامه والتدبر فيه، وتَنَعُّمِ القلب والبدن بهذه الصلاة، وبذلك الإقبال على الله تعالى.

• من فوائد قيام الليل:

ونذكر شيئا قليلا من فوائد وعواقب قيام الليل حتى يكون ذلك سببا معينا لنا على قيام الليل لله سبحانه وتعالى:

الفائدة الأولى: قيام الليل من أحسن القربات إلى الله تعالى

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ الْعَبْدِ جَوْفَ اللَّيْلِ الْآخِرَ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ»[2].

فإذا علم المرءُ المُحِبُ المُقْبِلُ على الله تعالى أن ربه أقرب ما يكون إليه في جوف الليل، لا شك أنه ينتظر تلك الساعة، ويقوم فيها لِقُرْب ربه منه.

لذلك قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْقُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: مَا أَعْرِفُكَ. فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ

(١) أخرجه النسائي (٣٩٣٩) من حديث أنس بن مالك ﷺ. قال الحافظ في الفتح(١١/ ٣٤٠): أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ وَغَيْره بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.اهـ.

(٢) أخرجه النسائي (٥٧٢)، والترمذي (٣٥٧٩) وقال: حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وابنُ خزيمة في صحيحه(١١٤٧) كلهم من حديث عمرو بن عبسة ﷺ.

تَعْرِفُنِى؟ فَيَقُولُ مَا أَعْرِفُكَ . فَيَقُولُ: أَنَا صَاحِبُكَ الْقُرْآنُ الَّذِى أَظْمَأْتُكَ فِى الْهَوَاجِرِ، وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَإِنَّكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ. فَيُعْطَى الْمُلْكَ بِيَمِينِهِ، وَالْخُلْدَ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ لاَ يُقَوَّمُ لَهُمَا أَهْلُ الدُّنْيَا، فَيَقُولاَنِ: بِمَ كُسِينَا هَذِهِ؟! فَيُقَالُ: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ . ثُمَّ يُقَالُ: لَهُ اقْرَأْ وَاصْعَدْ فِى دَرَجَةِ الْجَنَّةِ وَغُرَفِهَا. فَهُوَ فِى صُعُودٍ مَا دَامَ يَقْرَأُ هَذًّا كَانَ أَوْ تَرْتِيلاً ». هذا حديث صحيحٌ[1]. «أسهرتُ ليلك» يعني: حال أنْ يتلوه ويدعو به ربَّه ويَتَمَلَّقه به جل وعلا.

وقد ذكرنا أن أفضل قراءة القرآن أن يقرأه قائمًا يصلي في المسجد، كما ذكر الله جل وعلا: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران:١٩١].

---

(١) أخرجه الإمامُ أحمد في مسنده عن بُرَيْدَةَ الأسلمي ﷺ مرفوعًا(٥/ ٣٤٨)،وغيرهُ. قال الشيخ ناصر في الصحيحة (٢٨٢٩): «الحديث حسنٌ أو صحيح».اهـ. وفي حاشية السندي على ابن ماجه: «قَوْله (كَالرَّجُلِ الشَّاحِب) قَالَ السُّيُوطِيُّ: هُوَ الْمُتَغَيِّرُ اللَّوْن وَالْجِسْم لِعَارِضٍ مِنْ الْعَوَارِض؛ كَمَرَضٍ أَوْ سَفَر وَنَحْوهَا. وَكَأَنَّهُ يَجِيء عَلَى هَذِهِ الْهَيْئَة لِيَكُونَ أَشْبَهَ بِصَاحِبِهِ فِي الدُّنْيَا، أَوْ لِلتَّنْبِيهِ لَهُ عَلَى أَنَّهُ كَمَا تَغَيَّرَ لَوْنه فِي الدُّنْيَا لِأَجْلِ الْقِيَام بِالْقُرْآنِ كَذَلِكَ الْقُرْآن لِأَجْلِهِ فِي السَّعْي يَوْم الْقِيَامَة حَتَّى يَنَال صَاحِبه الْغَايَة الْقُصْوَى فِي الْآخِرَة.» اهـ. وقد شرح المؤلف هذا الحديث الشريف شرحا مفصّلا به كثير من الإفادات في رسالة «من بركات وأنوار القرآن الكريم» - يسّر الله نشرها والنفع بها -، وهي تفريغٌ مهذب لسلسلة خطب بنفس الاسم، ألقاها في سنة ١٤٣١هـ.

الفائدة الثانية: مشاركة الصالحين من قبلنا في دأبهم

قول النبي ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَهُوَ قُرْبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ، وَمَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ [وَمَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ عَنْ الْجَسَدِ]» (1)

قيام الليل: شعار الصالحين قبلكم، دأب الصالحين قبلكم، والصالحون قبلكم لابد وأن تشاركوهم فيه، وأن تنافسوهم عليه، ولا يكون الصالحون قبلكم أَوْلَى بالله تعالى منكم، وأولى بمجاورته سبحانه وتعالى في جنته مع "النبيين والصديقين والشهداء" منكم.

انظر لهؤلاء الصالحين كيف قضَوْا ليلهم يستنصرون ربَّهم ويدعونه ويناشدونه، ثم يُصْبحون ليقاتلوا عدوهم، فما كانوا يستنصرون ويَتَقَوَّوْنَ ويستمدون المدد والعون من الله تعالى إلا بذلك القيام.

لذلك: لما وصفوهم قالوا: لهم دَوِيٌّ بالقرآن كدوي النحل في ليلهم. كانوا فرسانًا بالنهار، رهبانًا بالليل، وذلك في أشد المواطن فزعًا، وفي أشدها خطرًا، و مخافةً، وهي عند مواجهة عدوهم -ليس عندما يَسْعَون إلى رزقهم أو معاشهم أو دراستهم- يقومون ليلهم، بل في أشد من ذلك؛ إذا لاقَوْا عدوهم كانوا يقومون

---

(1) أخرجه الترمذي (٣٥٤٩) من حديث أبي أمامة ﷺ . وما بين المعقوفتين زيادة من حديث بلال ﷺ عنده أيضا. وحديث أبي أمامة قال فيه العراقي في تخريج الإحياء: (رواه الطبراني والبيهقي من حديث أبي أمامة بسند حسن) اهـ، ورواه بنحوه بالزيادة المذكورة الطبراني في االكبير(٦١٥٤) عن سلمان الفارسي ﷺ يرفعه ، قال الهيثمي في المجمع: (رواه الطبراني في الكبير وفيه عبد الرحمن بن سليمان بن أبي الجون؛ وثَّقه دحيم وابن حبان وابن عدي وضعَّفه أبو داود وأبو حاتم) اهـ.

ليلهم، مع أنهم كانوا ينبغي أن يناموا حتى يستطيعوا أن يقاتلوا، وإنما قاموا ليكون ذلك القيام مددَهم، وعَوْنَهُم على ذلك كله.

وذلك وصفهم الذي أشار إليه المولى سبحانه وتعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [السجدة:١٦].

وانظر إلى حال المؤمنين في ليلهم كما وصفهم الله تعالى لنتعظ به في حال أنفسنا:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الذريات١٥ : ١٨].

يعني: كانوا قليلًا من الليل ما ينامون.

الهجوع: النوم، والتهجد: هو قيام الليل.

وصف ليلَهم بقلة الهجوع، ووصف أيضاً ليلهم بالتجافي عن المضاجع، ووصف ليلهم ﷺ بالبيات سُجَّدًا لله تعالى وقيامًا.

فتلك أحوالٌ غريبة، وتلك أمور تكاد أن تكون صعبة، ولكنها تَخِفُّ كما أشرنا عندما يَعلم المرءُ أن ذلك سببه محبة الله تعالى والشوق إليه والتنعم بالوقوف بين يديه، وقرة العين بالإقبال عليه، قال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [السجدة:١٦].

فهذه حال المؤمنين الذين بَشَّرَهُم ربهم بالجنة فقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الذاريات:١٥].

قوله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ، تُوَضِّح أولَ صفات المؤمنين قبل "رمضان"، وتزداد هذه الصفة في "رمضان" كحال النبي ﷺ المُشَرَّف: "أن تتجافى جنوبهم عن المضاجع" يعني: أن تتباعد هذه الجُنُوب عن مكانها التي تضجع فيه لتستريح ... تَبْعُد هذه الجُنُوب عن مواضع الراحة، إذ الراحة الحقَّة في قيامها لله تعالى.

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾:

فليس نومهم طويلًا، وليس نومهم ثقيلًا، وليس النوم أحب إليهم، بل على العكس.

فهذه الحالة إذاً تُبيِّن محبَّتهم لربِّهم، بل محبةَ ربِّهم لهم.

وقد ذكرنا في الثلاثة الذين يحبُّهم الله تعالى ذلك الرجل الذين كان معهم في سفرهم **حتى إذا كان النوم أحب إليهم مما يَعْدِلُ به** – أي كان النوم أحب شيء إليهم ولا يساويه شيء- **" قام إليَّ أحدهم يدعوني ويتلو آياتي ويتملقني "** [1].

هؤلاء يحبهم الرب جل وعلا، وكفى بذلك شرفًا تلك الحالة، وتلك المنزلة وبهذه المرتبة العالية التي تُبين قُرْبَهم من ربِّهم واصطفاءَ الله لهم واجتباءه سبحانه وتعالى إيَّاهم.

لذلك قال: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾.

---

(١) انظر تمام نص الحديث وشرحه وتخريجه في الفصل الثاني: الوظيفة الثانية.

ولا شك أن حال المؤمنين اليوم على العكس؛ كلما وجد وقتًا فارغًا بَدَلًا أن يصلي ويقوم ويدعوَ ويأخذ حظه من الله تعالى.. إذا به ينام هذا الوقت، ويَحْزُن أن ضاع حظه من نومه، ويَحْزُن أن قَلَّت ساعات نومه، ولا يحزن أن قَلَّتْ ساعاتُ إقباله على الله وتَمَلُّقه له، ودعائه له، وإقباله عليه، وأن يأخذ من ربه -جل وعلا- النصيب الأوفى من المحبة والإقبال عليه، والنظر له واصطفائه واجتبائه.

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾:

بل إن الله -تبارك وتعالى- قد بَيَّن أن ليلهم ليس النومَ -كما هو الحال في طبيعة المرء- بل وصفهم ربهم في وصف عباد الرحمن بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾ [الفرقان:٦٤].

وانظُرْ إلى هذا التركيب القرآنِّي البديع؛ يبيتون سجدًا! الأصل في استعمال "يبيت" لغويا في غير القرآن أن يقول: "يبيت الرجل نائمًا". فكأنه رفع "نائمًا" هذه ووضع بدلها "سُجَّدًا وقيامًا".

فبدلًا أن يقول: بِتُّ الليلة، يعني: نِمْتُ هذه الليلة، يقول: نام قائمًا راكعًا، ساجدًا. كأن نومه وراحته هو السجود والركوع ... كأن نومه وراحته هو الإقبال على الله تعالى وعلى طاعته. فلا يكون المرءُ مطمئنًا مستريحًا هادئَ البال قد أخذ قِسْطَهُ من الراحة التي يرجو والاستجمام الذي يسعى إليه إلا راكعًا وساجدًا.

وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٧]، ليبين كذلك تلك الحال التي قال فيها الله تعالى للنبي ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ

أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴿٥﴾ ﴾[المزمل: ١:٥] .

وقال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾[المزمل:٢٠].

فكان ذلك حالهم الذي ينبغي التفكر فيه ومقارنة أحوالنا على كلام القرآن؛ ليضع المرء الدواء على موطن الداء، وليقوم لله تعالى تلك القَوْمة التي أمره بها: ﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾.

وقد كان حالٌ من أحوال النبي ﷺ في قيامه بالليل هذا الحال، وهو: أنه ﷺ ما تُريد أن تراه قائمًا إلا رأيته، وما تريد أن تراه نائمًا إلا رأيته [1].

ومعنى ذلك: أنه ﷺ -كما يقول العلماء-كان يُكابد حال قيامه لليل. وصفةُ مكابدة الليل: أن يقوم فيتوضأ، فيصلي، ثُم تغلبه عينه، فينام قليلًا، فيفزع مرة أخرى، فيقوم، فيتوضأ، فيصلي ثُم تغلبه عينه، فينام قليلًا، فيقوم فيتوضأ فيصلي، وهي شدة المكابدة، وهي حال من أحواله ﷺ التي تُبَيِّن هذا التجافي عن المضاجع،

(١) عن أَنَسٍ رضي الله عنه قال «مَا كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ أَرَاهُ مِنَ الشَّهْرِ صَائِماً إِلاَّ رَأَيْتُهُ، وَلاَ مُفْطِراً إِلاَّ رَأَيْتُهُ، وَلاَ مِنَ اللَّيْلِ قَائِماً إِلاَّ رَأَيْتُهُ ، وَلاَ نَائِماً إِلاَّ رَأَيْتُهُ ، وَلاَ مَسِسْتُ خَزَّةً وَلاَ حَرِيرَةً أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وَلاَ شَمِمْتُ مِسْكَةً وَلاَ عَبِيرَةً أَطْيَبَ رَائِحَةً مِنْ رَائِحَةِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم» . أخرجه الإمام البخاري (١٩٧٣).

والتي تبين أنه ﷺ كان يبيت لربه راكعًا وساجدًا وقائمًا؛ يرجو رحمة ربه كما ذكر المولى سبحانه وتعالى[1].

لذلك:

كان عِلْمُ المرء بقرب الربِّ جلَّ وعلا في جوف الليل منه عونًا له على القيام لله تعالى؛ إذا به يَهُبُّ من نومه لقرب ربه منه، ولإقباله على ربه، فيقوم حالئذ، وقد ترك نومه وراحته وزوجته، ليقوم لله تعالى في تلك الليلة التي أقامه الله تعالى فيها.

فقد رُوِيَ أن الله تعالى يقول لجبريل: «أقِمْ فلانًا، وأنمْ فلانًا»، يُقيم فلانًا ليذكر الله تعالى، وأنمْ فلانًا؛ لأنه لا يريد منه ذِكْرًا لله تعالى لِمَا صدر منه.

قد أتت الأيام الجميلة، وأتت مواسم الرحمة لِيَنْفُضَ المرءُ عنه ثوبَ الغفلة، وثوب النوم، وثوب البُعْد، والجفاء عن الله تعالى؛ لتكون راحته ولذته ونعيمه وسروره وشوقه في الإقبال على الله تعالى.

الفائدة الثالثة: قيام الليل مطردة للداء عن الجسد

يقول صلوات ربي وسلامه عليه: «وَمَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ عَنْ الْجَسَدِ»[2] يعني: إن أولئك المتخوفين من قيام الليل بسب مرضهم وتعبهم و شقائهم، وبسبب كذا وكذا مما يكون عائقًا عن القيام، إذا القيام على العكس مما يخافون، فهو سببٌ لطرد الداء عن البدن، وسببٌ لشفاء هذا البدن. فإذا ما قام لله تعالى كان سببًا لشفائه،

---

(١) قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[الزمر: ٩].

(٢) سبق تخريجه .

ورفع تعبه، وعدم شعوره بهذه المشقة التي أصابته في يومه؛ لأنه أقبل على ربه فنسي به الشقاء؛ "حتى إذا كان النوم أحب إليه مما يعدل به قام إليه".

وهذا القيام لا يُشْعِرُ المرء بهذا التعب؛ لأن قرة عينه فيه؛ لأن لذته ونعيمه لا تكون إلا بذلك، تَعِسَ من كان نعيمه وسعادته في الدنيا الزائلة، في امرأته وولده وماله وشُغله وأصحابه، وأُنْسِه بغير الله تعالى.

الفائدة الرابعة: قيام الليل مكفرة للسيئات

وإنه كذلك كما أشرنا «وَمَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ»[1] .

يعني: سبب تكفير السيئات والذنوب والمعاصي قيام الليل كما ذكر الله تبارك وتعالى، وكما ذكر النبي ﷺ ، وإنهم كانوا يُصلُّون ليلهم حتى إذا أسحروا - يعني: إذا دخلوا في السَّحَرِ - قاموا فاستغفروا الله تعالى كما ذكر سبحانه: ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٧].

قاموا ليلهم، حتى إذا أسحروا أخذوا يستغفرون الله تعالى، وهو معنًى دقيقٌ؛ أنهم بعد صلاتهم في ليلهم إذا بهم لا يَرَون أنهم قد عملوا شيئًا لله تعالى، وإنما يستغفرون؛ كأنهم قد باتوا يَعْصون الله تعالى!!

سُئِل الحسن ﷺ عن المُتَهَجِّدين: ما بَالُهم أحسن النَّاس وجوهًا؟ قال: **قاموا إلى ربهم، فألبسهم من نوره سبحانه وتعالى .**

هذه الأمور تَحْمِلُكَ على القيام، وتأخذك إلى الله تعالى.

---

(١) سبق تخريجه .

وما رأينا القوة والنور في أولئك الصالحين إلا بسبب ذلك: إذا جَنَّهُم الليل صَفُّوا أقدامهم لربهم، فمنهم باكٍ، ومنهم صارخ، ومنهم داعٍ، ومنهم راكعٌ، ومنهم ساجدٌ.

الفائدة الخامسة: قيام الليل يخفف قيام يوم مقداره خمسين ألف سنة

وأَمْرٌ آخر وهو أن طول القيام يُخفف قيامَ يوم طوله خمسون ألف سنة، فيتذكر المرء ذلك فتهون عليه المشقة، كما يعلم أن هذه الجوارح الزائلة ستشهد له عند الله تعالى يوم القيامة من ناحية، وتكون منيرة له بنور القرآن والقيام من ناحية أخرى.

عن أبي ذر ﷺ [1] قال: **«صوموا يومًا شديدًا حَرُّه لِحَرِّ يوم النشور، وصَلُّوا ركعتين في سواد الليل لوحشة القبور»** [2].

(١) أَبُو ذَرٍّ جُنْدُبُ بنُ جُنَادَةَ الغِفَارِيُّ أَحَدُ السَّابِقِيْنَ الأَوَّلِيْنَ، مِنْ نُجَبَاءِ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ.وَكَانَ يُفْتِي فِي خِلاَفَةِ أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ. وَكَانَ رَأْساً فِي الزُّهْدِ، وَالصِّدْقِ، وَالعِلْمِ، وَالعَمَلِ، قَوَّالاً بِالحَقِّ، لاَ تَأْخُذُهُ فِي اللهِ لَوْمَةُ لائِمٍ. عن رسول الله ﷺانه قال: (**ما أظلتِ الخضراءُ و لا أقلتِ الغبراءُ على ذي لهجةٍ أصدق** من أبي ذر) رواه الحاكم في المستدرك (٨٤٧٨) وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، قال الذهبي قي التلخيص : على شرط مسلم .اهـ توفي ﷺ سنة ٣٢ هـ بالربذة.

(٢) أخرجه أبو نُعيم الأصبهاني في الحلْية عن أبي ذر ﷺ في ترجمته موقوفا عليه ، و نذكر تمام الأثر للفائدة: (عن سفيان الثوري قال: قام أبو ذر الغفاري ﷺ عند الكعبة، فقال: يا أيها الناس أنا جندب الغفاري، هلموا إلى الأخ الناصح الشفيق، فاكتنفه الناس، فقال: أرأيتم لو أن أحدكم أراد سفراً أليس يتخذ من الزاد ما يصلحه ويبلغه؟ قالوا: بلى، قال: فسفر طريق القيامة أبعد ما تريدون، فخذوا منه ما يصلحكم، قالوا: وما يصلحنا؟ قال: **حجوا حجَّةً لعظام الأمور، صوموا يوماً شديداً حرّه لطول النشور، صلوا ركعتين في سواد الليل لوحشة القبور، كلمة خير تقولها، أو كلمة سوء تسكت عنها لوقوف يوم عظيم،**

فإن مما يُنير قبر المرء، ويزيد نوره عند مروره على الصراط ذلك القيام الذي يزهد المرءُ فيه اليوم، مع أن راحة جسده وشفاء بدنه إنما هو في ذلك القيام.

تشهد لهم هذه الجوارح الضعيفة اليوم بِطُول قيامهم، وتُنِير لهم قبرهم، وتنير لهم طريقهم على صراطهم، إذ المرور على الصراط على حسب هذا النور ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم ﴾ [الحديد:١٢].

هذه الصلوات وطولها وتعبها ومشقتها - التي يظن المرء أن لها تعبًا ومشقة - إذا بها هي الراحة (١)، وإذا بها هي نورهم ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ

تصدقْ بمالك لعلك تنجو من عسيرها، اجعل الدنيا مجلسين؛ مجلساً في طلب الآخرة، ومجلساً في طلب الحلال، والثالث يضرك ولا ينفعك لا تريده. اجعل المالَ درهمين، درهماً تنفقه على عيالك مِن حِلّه، ودرهما تقدمه لآخرتك، والثالث يضرك ولا ينفعك لا تريده. ثم نادى بأعلى صوته: يا أيها الناس قد قتلكم حرصٌ لا تدركونه أبداً).

(١) وليس في القيام الراحة والنور فقط، بل فيه أيضاً شرف المؤمن: «جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا محمد: عشْ ما شئتَ فإنك ميت، واعملْ ما شئت فإنك مجزيٌ به، وأحببْ من شئت فإنك مفارقه، واعلمْ أن شرف المؤمن قيام الليل، وعزّه استغناؤه عن الناس». قال المنذري في الترغيب: رواه الطبراني بإسناد حسن. اهـ.

كما أن قيام الليل هو أفضل النوافل عند كثير من العلماء لقول النبي ﷺ: «أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ اللهِ الْمُحَرَّمُ. وَأَفْضَلُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ صَلاَةُ اللَّيْلِ» رواه الإمام مسلم.

وبقيام الليل يتوسل العبدُ إلى ربّه لينالَ رحمتَه سبحانه وتعالى، قال ﷺ: «رَحِمَ اللهُ رَجُلاً قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ. رَحِمَ اللهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ» الحديث رواه أبو داود وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

وبالقيام أيضاً يرجو به العبدُ نيل عطايا الرب سبحانه وتعالى واستجابة الدعوات؛ فعن رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي اللَّيْلِ لَسَاعَةً لاَ يُوَافِقُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللهَ خَيْراً مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ إِلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ وَذَلِكَ كُلَّ

﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم:٨].

٣ـ الترهيب من ترك قيام الليل

لذلك: لَمَّا كان الأمر على هذا الحال الذي ذكرنا، إذا بالنبي ﷺ يُحَذِّر: « لا تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ؛ كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ »[١] . ويقول في حقِّ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: « إِنَّ عَبْدَ اللهِ رَجُلٌ صَالِحٌ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنْ اللَّيْلِ »[٢].

يقول سالم بن عبد الله بن عمر[١] رحمه الله راوي الحديث عن أبيه عبدِ الله بن عمر[٢]: فَكَانَ عَبْدُ اللهِ بَعْدَ ذَلِكَ لاَ يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إلاَّ قَلِيلاً .

لَيْلَةٍ » . رواه الإمام مسلم . وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْمُقَنْطَرِينَ». أخرجه أبو داود (١٣٩٨) وسكت عنه، وقال الحافظ ابن حجر: حسنٌ لشواهده. انتهى من نتائج الأفكار (٣/ ٢٥٣) ، ط. دار ابن كثير. وقوله ﷺ (مِنْ الْقَانِتِينَ): يَرِدُ بِمَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٍ كَالطَّاعَةِ وَالْخُشُوعِ وَالصَّلَاةِ وَالدُّعَاءِ وَالْعِبَادَة وَالْقِيَام وَالسُّكُوت فَيُصْرَفُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي إِلَى مَا يَحْتَمِلُهُ لَفْظ الْحَدِيث الْوَارِدِ فِيهِ ، كَذَا فِي النِّهَايَة ، وَالْمُرَاد هَاهُنَا الْقِيَام فِي اللَّيْل، (كُتِبَ مِنْ الْمُقَنْطِرِينَ) : بِكَسْرِ الطَّاءِ مِنْ الْمَالِكِينَ مَالًا كَثِيرًا ، وَالْمُرَاد كَثْرَةُ الْأَجْرِ، وَقِيلَ أَيْ مِمَّنْ أُعْطِيَ مِنْ الْأَجْرِ؛ أَيْ أَجْرًا عَظِيمًا قَالَهُ السِّنْدِيُّ. انتهى من عون العبود. قال الحافظ المنذري – : «من سورة «تبارك الذي بيده الملك» إلى آخر القرآن ألف آية والله أعلم».

(١)أخرجه البخاري (١١٥٢) ، ومسلم (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه .

(٢)أخرجه البخاري (٧٠٢٩) ، ومسلم (٢٤٧٩) من حديث سالم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يرفعه إلى النبي ﷺ.

وإن مما يُقَوِّي المرء على يومه، ويَحْفَظُه عليه وتتنزل عليه بركته هو ذلك القيام.

وما يُترك قيام الليل إلا بحرمان من الله تعالى بسبب المعصية، يقول أحد الصالحين : أذنبتُ ذنبًا فَحُرِمْتُ قيام الليل خمسة أشهر. ويقول آخر: أذنبت ذنبًا فَحُرِمْتُ قيام الليل سنة. وانظُرْ إلى نفسك !! تَراك يومًا أو يومين أو ثلاثة تقوم الليل، ثم بعد ذلك تنقلب أحوالك، وتقع في المعصية أو الغفلة فإذا بك تُحْرَمُ أيامًا كثيرة من قيام الليل.

قالِ النبيُّ ﷺ: « **يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ ثَلاثَ عُقَدٍ إِذَا نَامَ، بِكُلِّ عُقْدَةٍ يَضْرِبُ عَلَيْكَ لَيْلاً طَوِيلاً، فَإِذَا اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، وَإِذَا**

(١) سَالِمُ بنُ عَبْدِ اللهِ ابْنِ أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ الإِمَامُ، الزَّاهِدُ، الحَافِظُ، مُفْتِي المَدِيْنَةِ و أحد الفقهاء السبعة ، أَبُو عُمَرَ، وَأَبُو عَبْدِ اللهِ ، التابعيُ، القُرَشِيُّ، العَدَوِيُّ، المَدَنِيُّ. ثبتٌ عابدٌ فاضلٌ، مَوْلِدُهُ فِي خِلاَفَةِ عُثْمَانَ ﷺ .

عَنْ مَالِكٍ بن أنس الإمام، قَالَ: (لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ فِي زَمَانِ سَالِمٍ أَشْبَهَ بِمَنْ مَضَى مِنَ الصَّالِحِيْنَ، فِي الزُّهْدِ، وَالفَضْلِ، وَالعَيْشِ مِنْهُ؛ كَانَ يَلْبَسُ الثَّوْبَ بِدِرْهَمَيْنِ !)،وكان أبوه عبد الله بْنَ عُمَر لصلاحه يحبه حبا شديدا حتى يُلاَمَ فِي ذلك ، فَكَانَ يَقُوْلُ:

يَلُوْمُوْنَنِي فِي سَالِمٍ وَأَلُوْمُهُمْ ... وَجِلْدَةُ بَيْنَ العَيْنِ وَالأَنْفِ سَالِمُ

توفي سنة: ١٠٦ هـ . انظر بتصرف السير وتهذيب التهذيب

(٢) عَبْدُ اللهِ بنُ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ بنِ نُفَيْلٍ الإِمَامُ، القُدْوَةُ، شَيْخُ الإِسْلاَمِ، أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ القُرَشِيُّ، العَدَوِيُّ، المَكِّيُّ، ثُمَّ المَدَنِيُّ. أَسْلَمَ وَهُوَ صَغِيْرٌ، ثُمَّ هَاجَرَ مَعَ أَبِيْهِ لَمْ يَحْتَلِمْ، وَاسْتُصْغِرَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَأَوَّلُ غَزَوَاتِهِ الخَنْدَقُ، وَهُوَ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ. رَوَى عِلْماً كَثِيْراً نَافِعاً عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَعَنْ كثير من الصحابة ، والحديث أعلاه شهادة من رسول الله ﷺ على فضله. توفي سنة ٧٣ أو ٧٤ هـ .

تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَتَانِ، فَإِذَا صَلَّى انْحَلَّتِ الْعُقَدُ فَأَصْبَحَ نَشِيطاً طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلاَّ أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلاَنَ»، لم يُصِبْ خيرًا، وهذا هو حالنا اليوم للأسف، لذلك يقول ﷺ في الذي نام الليل كله: «ذاك رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنَيْهِ» (١) . وإن بَوْلَه ثقيل ينبغي أن يَنْفُرَ منه المؤمن، وأن يُسارِع إلى رضا الله تعالى، وأن يكون قِيامُهُ هذه الأيام استعدادًا للمغفرة؛ حتى يكون ذلك دأبَه كما كان دأبَ الصالحين قبلنا (٢).



ويليه العدد الثاني من سلسلة (إيقاظ أهل الإيمان لمغفرة رمضان)

وهو: (حال المؤمنين في رمضان) (٣)

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٧٠) ، ومسلم (٧٧٤) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ .

(٢) ومن الأحاديث الواردة في الترهيب من ترك قيام الليل ما رواه ابْنُ عُمَرَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال «وَإِذَا قَامَ صَاحِبُ الْقُرْآنِ فَقَرَأَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ذَكَرَهُ، وَإِذَا لَمْ يَقُمْ بِهِ نَسِيَهُ». أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (٧٨٩)، ومفهومُ قوله ﷺ: «مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ » - سبق تخريجه قريبا- يُفيد الترهيب من القيام بأقل من عشر آيات.

(٣) فيا غيومَ الغفلة عن القلوب تقشَّعي، يا شُمُوسَ التقوى والإيمان اطْلَعِي، يا صحائفَ أعمالِ الصائمين ارْتفعِي. يا قلوبَ الصائمين اخشعي. يا أقدام المتهجدين اسجُدِي لربك وارْكَعي. يا عيونَ المُجتهدين لا تَهْجَعي، يا ذنوبَ التائبين لا ترْجِعي. يا أرضَ الهوَى ابْلَعي ماءَك ويا سماءَ النُّفُوسِ أقْلِعي. يا بُروقَ العُشّاق للعشاق المُعي. يا خواطرَ العارفين ارْتَعي يا هِمَمَ المحبين بغير الله لا تَقْنَعي... قد مُدَّتْ في هذه الأيام موائدُ الإنعام للصُّوَّام فما منكم إلا مَنْ دُعِي: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ ﴾ [الاحقاف: ٣١]. ويا هِمَمَ المؤمنين أسْرِعي. فَطُوبَى لمن أجاب فأصاب، وويل لمن طُرِد عن الباب وما دُعِي.

لَيتَ شعري إنْ جئتُهم يَقْبَلوني؟ ... أَمْ تُراهُم عن بابِهم يَصْرِفوني؟

أَمْ تُراني إذا وَقَفْتُ لَدَيْهِم ... يأذنوا بالدخول؟ أَمْ يَطْرِدُوني؟

انتهى بتصرف واختصار من لطائف المعارف، صـ ١٦١، ١٦٢، ط. ابن حزم.

المحتويات

صدر من هذه السلسلة: «إيقاظ أهل الإيمان لمغفرة رمضان»

م	اسم الرسالة	الطبعة	السنة
١	حال المؤمنين في شعبان	الخامسة	١٤٣١ هـ
٢	حال المؤمنين في رمضان	الرابعة	١٤٣٠ هـ
٣	والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سُبُلَنا	الأولى	١٤٣٠ هـ

رسائل أخرى لها علاقة بهذه السلسلة:

م	اسم الرسالة	الطبعة	السنة
١	ماذا بعد رمضان	الثالثة	١٤٣٠ هـ